الجزء الأول

كان إشعال النار .. مصدر سعادتها

جاءتنى الأم ومعها ابنتها البالغة من العمر سبعة عشر عاماً . كانت الأم سيدة جميلة الشكل ، أنيقة الملبس فى اعتداد واحترام ، وقورة فى حركاتها وسكناتها . . مهذبة فى حديثها الهادئ المتزن . . كان يظهر عليها فى بعض الأحيان قلق مختلط بشعور مزعج حين سردها قصة ابنتها التى جاءت تطلب علاجها .

وعلى حسب عادتى بدأت بمقابلة الأم أولا على انفراد حتى لا تكون شكواها من ابنتها على مسمع منها ، ولما سألتها عن فحوى ما يسخطها على ابنتها ، سردت على مسامعى قصة كاملة متناسقة الأحداث . . وكان أساس شكواها من ابنتها أن الفتاة تخفى أدوات المنزل وتلقيها بعيداً ، وتدخل منازل الغير وتعبث بمحتوياتها . وتعدّ تشديد أهلها بالرقابة عليها مضايقة تقابلها بتحطيم أثاث المنزل وإشعال النار فيه . ولم تجد الأم أية وسيلة أخرى لعلاجها سوى عرضها للفحص الطبى النفسى للعلاج والإفادة بما يتبع من أسلوب تجاه انحرافاتها السلوكية . .

وبعد أن فرغت الأم من حديثها ، طلبت إليها أن تبقى فى غرفة الانتظار ريثما أدعوها بعد الانتهاء من مقابلة الفتاة . وأكدت لها أنه سيكون فى وسعى بعد الانتهاء من مقابلة ابنتها أن أفتيها فى أمر الفتاة وأرشدها إلى ما ينبغى عليها أن تقوم به لعلاجها . . ثم دخلت الفتاة .

وأبادر فأقول إن الفتاة تركت فى نفسى منذ الوهلة الأولى أثراً

طبياً . . فمظهرها ليس فيه ما يدل على انحراف ، بل إنها على النقيض من ذلك تماماً . كانت تبدو نموذجاً حسناً لبنات الطبقة المتوسطة . . كانت نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح . . شكلها من حيث الجمال يعتبر فوق المتوسط وفى عينيها العسليتين الواسعتين ملامح الذكاء الممتزج بالقلق . . مظهرها العام يوحى بأنها أصغر سناً من عمرها الحقيقى . . حركاتها وحديثها يتسمان بالتردد الممتزج بقدر واضح من الشك والتوجس ، شديدة الخجل . . عديمة الثقة بالنفس ، وبالناس .

بدأت الفتاة تتحدث وتسرد تاريخ حياتها والأحداث المختلفة التى مرت بها ، وتوصف إحساسها من ناحية والديها وناحية المجتمع والناس . .

وبدراسة الحالة تبين ما يأتى :

قدر لها أن يجئ ميلادها ، وسط خلاف شديد بين والديها أخذ يتفاقم ويشتد حتى انتهى إلى الانفصال بينهما قبل أن تولد بشهر . ثم إلى الطلاق وهى ما تزال تدرج إلى الشهر الثامن من حياتها . طال زمن الإرضاع معها حتى امتد إلى ثلاث سنوات ، ولم تستطع ضبط وظيفة التبول حتى أدخلت إصلاحية بعد أن جاوزت العاشرة . .

أصيبت وهى فى الثالثة من العمر بحمى ألزمتها الفراش ثلاثة شهور ، وبعد أن شفيت منها كانت تصاب بنوبات صرع متكررة ومصحوبة بأحلام مخيفة ، تهب من نومها صارخة وهى فى حالة رعب شديد .

بدأ الانحراف فى سلوكها منذ سن مبكرة جداً ، فكانت تخفى كل

ما تصل إليه يدها دون أن تقصد إلى الانتفاع بما تخفى فيما بعد . . ولم يردعها العقاب المؤلم (الكى بالنار مثلا) عن الاستمرار فى هذا السلوك . . كانت تخفى المال والحلى عن أمها . . كما كانت تخفى نفسها أحياناً ، ولا تعبأ ببحث أمها عنها دون أن تهتدى إليها . طفولتها كانت تتميز بالحرمان والشقاء ، فقد تزوج أبوها وهى فى الثالثة ، وتزوجت أمها وهى فى السادسة ، وكانت الأم تحدثها عن أبيها حديثاً بشعاً مخيفاً ينفرها منه ويبغضها فيه . . ولكن الأم حين تضيق بأعمال ابنتها كانت ترسلها إلى بيت أبيها فكان هذا عند الطفلة أقسى عقاب لأنها كانت تكره أباها وتمقت الذهاب إليه وترى فيه رجلاً بغيضاً ، مقتراً أنانياً ، لا تطيب الحياة معه .

وفى بيت أبيها كانت تسرق أيضاً كل ما تصل إليه يدها وتخبئه ، وكانت سرقتها تتناول مواد الطعام ، ومفاتيح الأبواب والمال والملابس ، كما كانت تكيد لأبيها وزوجته بمختلف صنوف الكيد دون أن ترتدع من العقاب ، وقد اطردت وسائل أبيها فى العقاب حتى بلغت من القسوة والعنف مبلغاً لا تزال آثاره باقية بجسمها حتى وقت الفحص الطبى النفسى لها .

كان الأب رجل أعمال معروفاً فى جميع الأوساط الراقية التى يتحرك فيها بمبالغته والاعتداد بالكرامة . . وقد نالت الأسرة نصيب الأسد من صلابته هذه . . إذ كان يحكم أهل بيته بديكتاتورية لا تقبل المراجعة ، الكلمة دائماً كلمته . . والرغبة دائماً رغبته . . والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادته . . لأنه – كما يعتقد فى نفسه – أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم ، وكرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل أن ينزل إلى مدارك

الاعتذار عن غلطه أو الرجوع فى رأى أو مجرد مناقشته . . كان أنانياً ، مقتراً . ولكل هذه الصفات السابقة لم تدم حياته مع والدة الفتاة . . وتم الطلاق بينهما .

وبعد أن جاوزت الفتاة الخامسة بقليل ، كانت تحس الرغبة الجامحة فى رؤية النار المشتعلة ، وقد عرضتها هذه الرغبة فى إشعال النار واللعب بها إلى تجربة مفرطة ، إذ هبَّت فيها ذات يوم وهى طفلة وأكلت شعرها . ولولا إسراع أهلها إلى نجدتها لقضت عليها ، ولكنها برغم ذلك ظلت على تعلقها بالنار . .

وحين بلغت السابعة من العمر لم يكن للطفلة مكان مستقر ، إذ كانت حياتها مضطربة بين منزل أبيها ومنزل أمها ، ولم يكن أحد يحتمل كيدها أمداً طويلا ، فكان والدها يرسلها إلى أمها تخلصاً من مشاكلها . وقد شقيت فى البحث عن الطمأنينة والحب والعطف بين الاثنين ، ولكنها لم تلق غير الكراهية والحرمان .

ولما بلغت السابعة ألحقت بالمدرسة ، ولكنها سرعان ما هربت منها ، وحاول والدها أن يردعها بالضرب والإهانة ولكن دون جدوى . . وانتهت حياتها المدرسية بعد حين قصير . وعادت إلى اللعب وممارسة عملها المفضل . وهو السرقة وإخفاء ما تسرقه ، وسيان عندها أن يكون ذلك من صنوف الحلوى أو مفاتيح المنزل . فإنها لم تكن تنتفع بما تسرقه ، بل كانت تخبئه حتى يضيع أو ينكشف أمره مصادفة .

واستمر سلوكها مطرداً نحو الانحراف دون أن يردعها عقاب أبيها وقسوته ، حتى اضطر الأب فى نهاية الأمر إلى إرسالها إلى إصلاحية

الأحداث ، وكانت قد جاوزت العاشرة ، انتقلت الفتاة إلى برودة الإصلاحية التى تضم أكثر من ٣٠٠ طفل ، وأخذت نفسها تذوب فى هذا القطيع الإنسانى الضخم البائس المنحرف السلوك . ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أحوالها تتغير إلى الاسوأ ، نحو ميلها إلى العدوان ، فكانت تحرق الأوراق الرسمية ، وتتلف كتب التلميذات وأوراقهن وتفسد الخيط الذى يستعمل فى أعمال الإبرة ، وتخفى حاجات النزيلات وتعتدى عليهن أحياناً بالضرب . وتسرق بعض أدوات الإصلاحية لإخفائها . وظلت على هذا النحو حتى أخرجت من الإصلاحية بعد أن بقيت فيها أكثر من أربع سنوات .

فعادت إلى التأرجح بين أبيها وأمها ، وكلاهما راغب عنها . وعادت إلى سابق سيرتها من السرقة وإشعال النار . وفى بعض الأحيان كانت تضرم النار فى فراش أبيها ، وفى أحيان أخرى – أثناء نوبات تهيجها – كانت تضرمها فى أى شىء تجده ، وكأنها تأتى عملا من أعمال التهور . . ومن ذلك أنها سلطت ذات يوم عدسة على لحاف منشور لبعض الجيران فأحرقته . وكانت أمها تحمل عقابها فى بعض الأحيان ، فكان هذا التغاضى لا يروق الطفلة . . وما تزال بها تعاكسها وتثيرها حتى تنهال عليها ضرباً وإيذاء فتهدأ وتستريح . .

ولما فاض بالأم وعجزت عن أن تقاوم انحراف سلوك الفتاة أحضرتها للفحص والعلاج . وكانت حينئذ فى السابعة عشرة من العمر . . فلجأت أخيراً إلىّ كطبيبة نفسية ، بعد أن عرضتها على الكثير من الأطباء ، ولكنها لم تصل إلى أى نتيجة تؤثر على علاجها من هذا الانحراف فى السلوك . .

التحليل النفسى للحالة :

أخذت كطبيبة نفسية أنقب فى لفائف العقل الباطن بحثاً عن الأسباب والظروف التى تدفع الفتاة إلى هذه التصرفات المنحرفة . . وكنت أحاول أن أصل إلى أعماقها . . إلى عقلها الباطن . . لاستخراج الجرثومة التى ترقد فيها والتى تسبب لها الانحراف . . وقد أمكننى بعد عدة شهور من العلاج تعديل هذا السلوك المنحرف والوصول إلى نتيجة مرضية فى علاجها .

فهذه الفتاة كان لحياة البيئة المفككة التى عاشت فيها تأثير سيئ على نفسيتها ، الأمر الذى أدى إلى انحراف سلوكها نتيجة لاضطرابها الانفعالى . . ويمكن القول بأنها لم تنعم بحياة أسرية مترابطة وأن طفولتها كانت طفولة مهملة غير مستقرة ، بعيدة عن الطمأنينة مليئة بالانفعالات النفسية المؤلمة .

• فالأحلام المزعجة . . فى الطفولة المبكرة لها ، هى فى الأرجح أحلام القلق النفسى ، تفصح إلى حد كبير عما كان يملأ نفسها من الاضطراب والحرمان من الحب والعطف والحنان وعدم الشعور بالرضا . .

• والسرقة التى كانت تقتصر فيها على إخفاء ما تسرق دون الانتفاع به . . كانت بمثابة الاحتجاج والنداء والتعبير عن الحرمان من الحب والحنان .

• وإشعال النار كان من السمات البارزة فى انحرافها ، وأن تكرار حوادث الإشعال مع غياب العوامل الشعورية فيها وتأكيد الفتاة

جهلها بالدوافع إلى ذلك العمل ، فيما عدا رغبتها فى رؤية النار المشتعلة ، ليشير إلى أن الإشعال يدخل فى نطاق الأعمال الإجبارية العصابية التى تقررها عوامل لا شعورية . .

فإشعال النار عمل يصدر عن البعض ، وهو إفصاح عن نزعة نحو التدمير أو الانتقام من حب غير مجاب . وكلما ازداد تأخيره بالعوامل النفسية عند مشتعلى الحريق يتضح لنا أنهم بعيدون عن الرضا والاستقرار العادى ، فهم يعيشون ، نهباً لمخاوف مرضية تجعلهم فى حالة توتر لا يطاق ، فيكون الإشعال بمثابة الانفجار الذى يعينهم على التخلص من تلك الحالة إلى حين . . وقد يكون أيضاً لإضرامها المتكرر فى فراش أبيها دلالته النفسية التى لا تخفى وهى حقدها وكراهيتها ورغبة انتقامية منه .

فالحياة التى مرت بها الفتاة مليئة بالإهمال والقلق والبغض والحرمان ، خالية من العطف والحب والإحساس بالأمان . . هى الحياة التى تنمو فيها النزعات الشاذة والدوافع المريضة . .

فبالمراجعة القليلة لحياة هذه الفتاة يظهر شعور قوى بالخطيئة مع نزعة مرضية إلى العقوبة حيث إنها لا ترتاح إذا غضت أمها النظر عن عقابها . . فكانت لا تزال تثيرها حتى تنهال عليها ضرباً مبرحاً . . ثم تهدأ بعد ذلك . وإنه مما يزيد الشعور بالخطيئة تلك الطبيعة المرضية التى تتلذذ بالألم سواء فى مظهره المادى أو المعنوى .

ومن المرجح أيضاً أن إخفاقها المتكرر فى الهرب من المدرسة كان مرجعه إلى الشعور بالخطيئة . . فإن مراجعة تلك المحاولات تكشف عن أسلوب : واحد فيها لا يتغير وينتهى بها دائماً إلى الضبط والافتضاح ،

ولو لم يكن الشعور بالخطيئة ورغبة العقاب وراء محاولات الهرب لما اختارت هذا الطريق المفتوح ولما تشبثت به بعد وضوح فشله عدة مرات . .

عوامل الاضطراب :

إن العوامل التي أدت إلى اضطرابها النفسي وانحراف سلوكها هي :

١ – مجيء ميلادها مع خلاف شديد بين والديها انتهى بالطلاق وهي في الشهر الثامن ، فقدر لها أن تقوم برعايتها وإرضاعها أم قلقة مضطربة نتيجة الظروف الأسرية القاسية التي انتهت بالطلاق . . ومما لا شك فيه كان قلقها النفسي ينعكس أثره في معاملتها لابنتها .

٢ – نشأة الفتاة في أسرة مفككة حرمتها من الدفء الأسري والحب والحنان والاستقرار والشعور بالانتماء .

٣ – سوء معاملة الطفلة من أمها وعقابها بأقسى أنواع العقاب (كالكي بالنار مثلا) وكذلك قسوة الأب وأنواع العقاب العنيفة التي كان يلجأ إليها في معاملتها . ولاسيما أنها كانت تكرهه وترى فيه رجلا بغيضاً مقترأ ، أنانياً ، لا تطيب الحياة معه كما أفهمتها أمها . فكان انتقامها لهذه المعاملة القاسية يبدو في صورة السرقة وإشعال النار .

٤ – إرسال الفتاة إلى الإصلاحية واختلاطها بالمجرمين هناك وسوء معاملة الجميع لها لما كانت تأتي به من أعمال غير لائقة زاد من إحساسها بالعدوان وزاد من سلوكها المنحرف .

٥ – عدم استقرار الفتاة واستمرار تنقلها بين أبيها وأمها وسوء معاملتها وحرمانها من الحب جعلها تشعر أنها منبوذة من الجميع ، فحقدت هي

بالتالى على المحيطين بها وامتد ذلك إلى المدرسة والتلاميذ ثم إلى الإصلاحية ومن فيها .

العوامل السابقة : وحرمانها من الحب والحنان والعطف والطمأنينة والاستقرار ، وعدم وجود إنسان فى حياتها ترتاح إليه ويستطيع أن يقدر مشاعرها ويفهمها ويوجهها ويقف بجانبها ، أدى كل ذلك إلى انحراف سلوكها الذى ظهر منذ طفولتها ، واستمر معها كوسيلة للانتقام ممن يسيئون إليها . ومن الملاحظ أنه كلما اشتد عقابها زاد انحراف سلوكها لزيادة إحساسها بالعدوان .

كان من الأسس الرئيسية قبل أن أبدأ فى علاجها أن أوضح للأم أسباب انحراف الفتاة لحرمانها من الحب والحنان وعدم فهم حاجاتها النفسية ونشأتها فى بيئة مفككة ، وعليها أن تعمل لتعديل أسلوبها فى معاملة الفتاة حتى يمكن أن تنال حبها وحتى يمكن للفتاة أن تعطى حبها لمن حولها . . « فاقد الشىء لا يعطيه » . . كما نبهت الأم بعدم إرسالها إلى أبيها ، وأن تقوم هى نفسها برعايتها ومساعدتها على الانتظام فى العلاج .

وفى أثناء علاجى للفتاة كنت أقوم بتوجيه الأم إلى كيفية معاملة الفتاة والأسلوب النفسى السليم فى هذا التعامل .

كانت الفتاة أثناء الجلسات النفسية تشكو من سوء معاملة الجميع لها وكان يصحب ذلك انفعال شديد وبكاء فى بعض الأحيان . واطمأنت إلىّ . أى إلى وجود من يحس بها وبعذابها ويقف بجانبها ويمنحها من العطف ما افتقدته طوال السنوات السابقة ، وتدريجياً بدأ أسلوب الفتاة يتحسن لشعورها بالاطمئنان واستقرارها طرف أمها وعدم عودتها لأبيها . ولم يمر

أكثر من أربعة شهور حتى ظهر عليها الاتزان النفسى فى السلوك ، وتقدير الأمور . وكانت الأم حين تلاحظ تغير سلوك ابنتها إلى الأحسن وهدوءها وتخلصها من السلوك المنحرف ، يزداد تعاونها فى العلاج بحسن معاملتها للفتاة ومحاولة فهم حاجاتها النفسية مما ساعد على نجاح العلاج النفسى .

مما سبق نرى أن البيئة الأسرية المفككة والمعاملة القاسية من الوالدين وعدم فهم حاجات الأطفال النفسية فى مراحل العمر المختلفة يؤدى إلى انحرافهم وارتكابهم أسوأ الأعمال لو لم يلقوا من يساعدهم ويقف بجانبهم ويوجههم ويعالجهم نفسياً إذا لزم الأمر .

فالأسرة هى البيئة الأولى للإنسان ، البيئة التى تمده بالمحفزات فى كفاحه الدءوب نحو التكيف ، أو تقيم المعوقات دون ذلك الكفاح . لذلك فإنه من البديهى أن تحقيق النضج الانفعالى ، أى الوصول إلى صحة النفس ، لا يمكن أن يتم إلا من خلال طفولة نعمت بالحب والحنان والقدوة الطيبة والطمأنينة ، وأنه لن يستطيع أحد غير الوالدين تزويد الطفل بذلك الغذاء الوجدانى الذى لاغنى عنه لصحة النفس . وما انتشار الآفات النفسية فى مظاهرها المتعددة إلا دليل على أن بيوتاً كثيرة لم تستطع أن تحيط صغارها بالحب والطمأنينة اللذين بدونهما سيعيشون فى سقم واعتلال . فإن الذى لم يحصل إلا على القليل من الحب فى سنيه الأولى سيظل متعطشاً إلى المزيد من هذا الغذاء الوجدانى شاعراً بالحرمان من حقه من أن يحب عاجزاً بدوره عن أن يحب .

عاشت ربع قرن من عمرها بلا حياة

الحياة لا تخلو من كذب ورياء وخداع ، ولكنها كذلك لا تخلو من الحب والوفاء والتضحية . . الحياة مزيج من الخير والشر ، من اللذة والألم ، من السعادة والشقاء . . ويخدع نفسه من يظنها خيراً خالصاً . ويخدع نفسه كذلك من يتوهمها شراً صرفاً . . يخدع نفسه عقاباً لها أو عقاباً لغيره ، بدافع الخوف ، أو الغرور أو حب الظهور أو ما إلى غير ذلك من دوافع . ومن الناس من يستطيع أن يحلل دوافعه ، ويهتدى بنفسه إلى الخطأ فى سلوكه أو فى سلوك من حوله فيعدل عنه أو يحاول أن يتخلص مما يسئ إليه ، ومنهم من لا يستطيع ذلك فيظل يتألم ويتعذب إلى أن تأتيه المساعدة من طبيب من أطباء النفس . .

جمع الحب بينهما منذ الطفولة الباكرة ، وشهد كل مكان فى منزله أو منزلها مظاهر هذا الحب . وعندما كبرا انتقل حبهما إلى المزارع الخضراء اليانعة حيث كان كثير من سكان قريتهما يحلو لهم أن يشاهدوا طفلين يجريان وراء بعضهما يلتهمان قطع الحلوى أو يعبثان بزهرة قمح . . وليس هناك أقوى من حب الطفولة ، فهو باق فى أذهاننا وقلوبنا حتى عندما نصل إلى الشيخوخة فنذكره ونستطعم مذاقه الخاص الذى لا يتغير برغم مرور الأيام ، وحب الطفولة قوى لأنه لا يعرف غرضاً خاصاً ، ولا هدفاً ذاتياً ، وهو أول شىء ينطبع فى أذهاننا من العواطف البريئة الحلوة . .

كانت وفاء وأحمد أقارب ، هى ابنة عمته وهو ابن خالها ، والبيتان

متجاوران ، أمها وأمه وحدة لا تتجزأ ، والأبوان صديقان لا يفترقان . وتمتد تلك العلاقات الطيبة من الآباء إلى الولد والبنت فينعمان بالحب منذ أن عرفا الحياة ، ويأكلان ويشربان معاً . ويقضيان معاً أجمل أوقاتهما . . كان الأمر كذلك عندما كانا طفلين صغيرين لا يتجاوز عمر أحمد الثامنة ولا يتجاوز عمر وفاء الخامسة . ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد فرضت عليهما الرقابة من جانب الأهل . وأصبح انفرادهما معاً عملية خاطئة للغاية تستوجب توجيه اللوم إليهما وبخاصة إلى وفاء ، التي شبت على أن للبنت حقوقاً أقل بكثير من الولد . . وأن ما يباح للولد أكثر بكثير مما يباح للبنت .

وعندما بدأت وفاء مرحلة البلوغ عوملت من قبل والديها وخاصة والدتها معاملة مختلفة ، وأصبحت محاصرة بالقيود والمحظورات والممنوعات . فوجدت أن المحظورات بالنسبة لها أضعاف المباح . وبقدر ما كان والداها يحبانها ويسهران على راحتها ، كانا في ذات الوقت يقسوان عليها من حيث لا يعلمان ، ومن ذلك مثلا كانا يحرمان عليها ارتداء الملابس الحديثة المناسبة التي يلبسها مثيلاتها من البنات . . ويفرضان عليها الفساتين الفضفاضة التي تصل أطرافها إلى ما تحت الركبة ، وبذلك تبدو بين الأخريات غريبة وشاذة ، وتقاسي من زميلاتها في الدراسة الكثير من طعنات السخرية . .

يضاف إلى ذلك حرمانها من ممارسة جميع الأنشطة المدرسية التي تجرى عادة في نطاق الدراسة وخارجها مثل الرحلات والمعسكرات الصيفية والحفلات الاجتماعية . فكانت زميلاتها يستمتعن بوقتهن ، أما هي

فكانت تقاسى الحرمان من هذا النوع من الاستمتاع حسب رغبة والديها .

ومع ذلك كانت راضية لأنها لا تملك إلا الرضا ، سعيدة لأن يوماً سيجئ وستنقذ فيه من السجن المنزلى لتتحرر ولو قليلا لتشعر بما فى الحياة من حرية .

بعد حصولها على الثانوية العامة ، ألحقت بكلية البنات حيث لا يوجد اختلاط . وتقرر إقامتها فى بيت خالها حيث يستطيع شخصياً الاطمئنان والإشراف عليها . . وكان خالها قد نقل إلى القاهرة .

ولجأت الأم إلى تكرار توجيه النصائح والتعليمات التى يجب عليها اتباعها فى هذا الجو المنزلى الجديد ، مع زيادة التشديد فى ضرورة الالتزام بالسلوك المتزمت وعدم محاولة الاختلاط بالجنس الآخر . .

وكذلك لجأ والد أحمد يوجه إليه التعليمات الهامة فى هذا الصدد ونصحه باعتبار المنطقة التى فيها وفاء منطقة محرمة عليه . .

أصبحت وفاء تحت مسئولية خالها الذى كان لا يكف عن مراقبتها وملاحظتها وتزويدها بالنصائح المستمرة التى لا تنتهى ، ويحرم عليها زيارة صديقاتها ، والتعرف بمن يحيطون بهم . . ويقيم حولها سياجاً من الحراسة والمراقبة حتى لا يختل التوازن ، لأنه كان يشعر أن وجودها فى منزله مسئولية فى رقبته وأمانة يجب عليه المحافظة عليها .

كانت وفاء تقبـــل هذه الأوضاع القاسية راضية ، لأنها كانت تشعر أن لابد من التحمل كى تستطيع أن تكمل تعليمها الذى طالما كانت تحلم به . . وكانت تكبت عذابها فى نفسها وتتألم داخلياً ، وتبكى حين تخلو لنفسها من الحرمان الذى تعانيه من هذه القيود الخانقة . .

تعرفت وفاء منذ اللحظة الأولى لوجودها بكلية البنات بزميلتها هدى ومنذ بدأت المعرفة اتخذت وفاء من صديقتها مستشارة لها فى كل أمورها الخاصة ، وعندما روت لهدى علاقتها بأحمد ، وحبهما الجارف ، أبدت لها هدى ضيقها لأنهما فى منزل واحد ، ومع ذلك لا يعطيان لحبهما حقه . فتجرأت وفاء وبدأت تفكر فى حبها لأحمد بصوت عال . وبرغم الحظر المفروض عليهما بعدم الالتقاء منفردين ، فقد تبادلا الرسائل ، ثم اشتدت جرأتهما فشربا الشاى معاً فى أحد الأماكن العامة وبرغم ذلك التطور الذى تم فيما يتعلق بعلاقتهما الخاصة ، إلا أن أحمد ظل منطوياً على نفسه ، فعلى مائدة الشاى كان حديثه يدور حول البلد وأهل البلد . . أما وفاء فكانت أكثر جرأة منه ، وكانت تحاول أن تدفعه إلى أن يتكلم أكثر وبصراحة ، فكان لا يستطيع لأن القيود التى فرضت عليه منذ الصغر . استمرت معه حتى الكبر . . كانت أقوى منه بكثير . .

وتجرأ الاثنان وقبلا دعوة « هدى » إلى حفلة عيد ميلادها . . وهناك رأيا كيف يتحدث المحبون بصراحة وكيف يرقصون معاً ، الأمر الذى دفع وفاء إلى أن تبدى رغبتها فى أن ترقص مع أحمد برغم أنهما لا يعرفان الرقص .

كانت مشكلتهما الخاصة فى العودة واستقبال الأسرة لهما من أعقد ما مرّ بهما من أمور . ورأت وفاء أن تقول الحقيقة ، ولكن خالها ثار وأرغى وأزبد وأخذ يقذفها بالشتائم المبرحة ، وبأنها أمانة فى رقبته ولابد أن تعود إلى أهلها كما أتت . . أما أحمد عندما وصل فقد اكتفى بسؤاله عن سبب تأخره . . ولم يحاول أحمد أن يتدخل لحسم الموقف . . وكان

يجب أن يكون رجلاً ليقف بجانبها ويمنع تنفيذ قرار عودتها إلى البلد ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . .

عادت وفاء إلى بلدتها كسيرة الجناح لا تجد ما تدافع به عن نفسها كما لا تجد من يقف إلى جانبها كى تتم تعليمها . . لقد اتحدت إرادة والديها على ضرورة زواجها على الأقل ، لكى تنقطع الألسنة التى بدأت تتكلم عن « وفاء » .

كان الزوج هو « مختار بك » أحد كبار موظفى التفتيش الذى يعمل به مع والدها ، وهو رجل مزواج لا يهتم فى حياته إلا بأمور ثلاثة . . الزواج والأكل بشراهة والترفيه بأى أسلوب . وكانت وفاء بالنسبة له صفقة جديدة ، فهى جميلة صغيرة مثقفة يمكن أن تحقق له أمله فى الإنجاب . . وكان « مختار بك » بالنسبة لوفاء « قضاء وقدراً » ابتليت به ، لا تستطيع أن ترفض الزواج منه ، كما لا تستطيع بأى صورة من الصور الزواج من رجل آخر تريده هى — لقد قضى الأمر . وتزوجت « مختار بك » ، وأصبحت قطعة أثاث لا رأى لها فى أى شىء فيه ، بل لا رأى لها فى نفسها . كل ما كانت تحلم به إما أن تموت هى أو يموت هو . فلا فراق بينهما بالطلاق على الإطلاق .

وتمضى الأمور بالنسبة لوفاء ومختار بك ، وهى تذوى وتضمر ولا تجد لديها الجرأة حتى تجتر حبها القديم . ومختار بك يأكل ويسمن ويحصل على أموال الناس بالباطل ، ويجرى وراء الترفيه بكل أسلوب . . إلى أن تحققت أمنيته وانتقل إلى القاهرة ، واشترى فيلا فى المعادى وتزوج سراً بالراقصة التى تعرف عليها فى ليلة زفافه بوفاء . . وراح يبحث عن ثانية وثالثة ورابعة

حتى ولو أدى الأمر إلى مطاردة « هدى » صديقة وفاء . ومحاولة الاستيلاء عليها برغم أنها متزوجة . وبرغم أنها صديقة وفاء زوجته .

نجد أن سوء معاملة مختار بك لوفاء واكتشافها زواجه السرى من الراقصة ، وعودته يومياً مخموراً ورائحة الخمر تفوح من فمه . . جعلها تلح عليه فى يوم ما أن يطلقها فرفض وأخذ يضربها ضرباً مبرحاً واشتد العراك بينهما ، فأخذت تدافع عن نفسها فقذفته بزجاجة فوقع على الأرض فاقد الإدراك فنقل إلى المستشفى وظهر أنه لم يمت بل جرح فقط . . وقد أصيبت وفاء بحالة انهيار عصبي شديد . . ونقلها جيرانها إلى منزل صديقتها هدى بعد نقل زوجها إلى المستشفى . .

مكثت وفاء طرف صديقتها التى حاولت بطرق متعددة مساعدتها فى العلاج من الأدوار التى كانت تنتابها ؛ إذ كانت تصاب بحالات إغماء عنيفة وأحياناً بصراخ وبكاء نتيجة إحساسها بدوارٍ شديد يصيبها بعنف يكاد يفقدها عقلها ، يصاحب ذلك صداع قاتل يستمر معها ساعات كانت تلك الأعراض تدفعها إلى الصراخ . والصراخ الشديد ، حتى أن من حولها كانوا يظنون أنها أصيبت بجنون . . مما اضطر صديقتها هدى فى النهاية إلى عرضها علىّ للفحص الطبى النفسى والمشورة فى العلاج . . وكذلك أرسلت لوالديها بالحضور لتفقد حالتها . .

حين التقيت بوفاء لأول مرة كانت نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح . . كانت شاحبة الوجه ، ذابلة العينين يبدو فى ملامحها الحزن والكآبة . والدموع فى عينيها تنساب بصورة مستمرة . . لم ترغب فى الحديث مبدئياً ولكنها بدأت تبوح بما فى نفسها تدريجياً . .

وأخذت أنفث فى عقلها الباطن لأصل إلى العوامل التى أدت بها إلى حد الاضطراب النفسى . .

قبلت وفاء عن طيب خاطر أن أقوم بعلاجها ، ولم تتخل ولو مرة واحدة ، عن مواعيد الجلسات التى أقررها لها . وهذا فى حد ذاته عامل يساعد على نجاح العلاج النفسى .

وأخذت تقص علىَّ تاريخ حياتها الحافل بالمآسى والحرمان من الحب والحياة والعلم ، ومن كل ملذات الدنيا ، وكراهيتها الشديدة للرجال بكل أنواعهم . . ورغبتها الملحة فى الطلاق وعدم قدرتها على عودة الحياة ثانية مع هذا الزوج المتوحش المستهتر الذى لا يعرف القيم ولا يقيم لها وزناً . . حياته كحياة الحيوانات التى لا تقدر الأمور ولا العواقب ولا تعرف المشاعر .

استمر علاجها فترة طويلة ، قابلت فى خلالها والديها عدة مرات وأوضحت لهما خطأهما فى طريقة تنشئتها وفى طريقة زواجها ، وحرصت على ضرورة توجيههما إلى الأسلوب الصحيح لإعادتها لحالتها النفسية الطبيعية وضرورة طلب طلاقها من زوجها الذى وافق على ذلك كى يستطيع أن ينطلق إلى غيرها من النساء دون قيود أو مشاكل .

تم شفاؤها وعادت إلى اتزانها النفسى ، وأخذت تكمل تعليمها إلى أن تخرجت وحصلت على المؤهل العالى . . والتحقت بعمل مشرف أعاد إليها حياتها وكيانها وكرامتها بعد أن شعرت أنها فقدتها . فكانت هذه بداية حياة جديدة لوفاء التى عاشت ربع قرن من عمرها بلا حياة .

التحليل النفسى للحالة :

إن الشخص الذى تتاح له فى صغره فرصة الاستمتاع بالحياة الاجتماعية السليمة وتهيأ له أسباب الاختلاط بالناس وعقد الصداقات ، مثل هذا الشخص من المستحيل تقريباً أن يصاب بالاضطراب النفسى أو العقلى حتى لو كان تعساً فى أسرته .

فوجوده خارج البيت بين أقرانه ، ومشاركته لأبناء جيله فى ممارسة الأنشطة المختلفة يزوده بالطمأنينة النفسية التى قد يفتقدها فى بيته ، ويعوضه خسارته فى أسرته الصغيرة بالكسب العظيم الذى يجنيه مع أسرة المجتمع الكبيرة . .

وهذا كان يخالف الحياة التى عاشتها وفاء ، إذ حرمت من كل ملذات الطفولة التى تتفق وسنها فى المراحل المختلفة ، وكانت تعيش حياة يتخللها التزمت المبالغ فيه ، والقيود التى شلتها عن الحركة وعن الانطلاق الاجتماعى ، وكانت محاطة بالمحظورات فى كل خطوة من خطواتها . . حتى بعد وصولها إلى القاهرة للدراسة ، أحيطت بنفس سياج الرقابة من خالها فلم يعد لها منفذ لتتنسم فيه الحرية ، الأمر الذى أدى بها فى النهاية إلى الإحساس بالذلة والنقص بعد حادثة رجوعها متأخرة ليلا وعودتها إلى أهلها بالريف ، مما أدى فى النهاية إلى قبولها الزواج بالشخص الذى فرض عليها دون أن يكون لها الحق فى إبداء رأيها فى قبوله أو رفضه .

وكان من تأثير عدم توفر العلاقة الطيبة بينها وبين أمها ، أنها لا تستطيع أن تواجه أمها بمشاعرها وتصرح لها بما يجول فى خاطرها ،

لأن الأم كانت دائمة النقد اللاذع لها ، تحذرها وتنصحها بأسلوب قاس ليس فيه التفاهم الذى إذا توفر لساعد على فتح قلبها لأمها . ومصارحتها بما يكمن فى نفسها . . لكن وفاء تشعر أنها غريبة فى المنزل وغير مرغوب فيها ، ولذلك أسرعوا فى زواجها للتخلص من هذه الحياة .

كانت تكره الرجال وتحقد عليهم ، وذلك لأنها تعرضت لصدمات عنيفة تلقتها منهم وهى لم تزل فى فجر حياتها .

فالصدمة **الأولى** : تخلى والدها عنها وموافقته على أن تعيش حياة متزمتة خالية من نسيم الحرية بعيدة عن التطور العصرى ، وكذلك عدم وقوفه بجانبها ومعاونتها على تكملة تعليمها بعد عودتها من القاهرة .

والصدمة **الثانية** : قسوة خالها عليها ومبالغته فى مراقبتها وتقييدها ومهاجمته لها أخيراً بعد الحادث الأخير . ومبادرته وتصميمه على إرسالها إلى بلدتها لعدم قدرته على تحمل سلوكها المشين ورجوعها متأخرة ليلا .

والصدمة **الثالثة** : جبن ابن خالها وعدم إثبات رجولته وتخليه عنها وعدم مساندته إياها فى وقت محنتها ، بل ترك الأمور تسير فى طريقها ضدها .

والصدمة **الرابعة** : سوء معاملة زوجها لها واستهتاره بمشاعرها وتجاهله إياها ، وانغماسه فى ملذاته من خمر ونساء ، ومصاحبة الغانيات بدون حدود وملاحقته لصديقتها هدى ، وبزواجه من الراقصة دون أن يقيم لها ولحياته الزوجية وزناً . . مما أدى فى النهاية إلى الانفجار العنيف بينها وبينه والذى أدى فى النهاية إلى إصابتها بالاضطراب النفسى الذى كاد أن يؤدى بها إلى الجنون لولا المبادرة فى العلاج .

ويمكن تلخيص الأخطاء التربوية التي ارتكبت في حقها فيما يلي :

١ - عدم فهم الوالدين لحاجات وفاء النفسية في كل مرحلة من مراحل حياتها وعدم تبصرهم بأصول التربية . فأحاطاها بالقيود الصارمة وحرماها من نسيم الحرية الذي يساعدها على النمو الاجتماعي والنفسي السليم .

٢ - عدم تفاهم أمها معها ومشاركتها أحاسيسها . بل مبالغتها في نقدها وإحاطتها بالمحظورات ، مما أدى في النهاية إلى الانفجار نتيجة الكبت المستمر .

٣ - تخلي والدها عنها وعدم محاولته مساعدتها على تكملة تعليمها ورغبته في التخلص منها والإسراع بزواجها من إنسان غير مناسب من كل النواحي .

٤ - إلزامها بالزواج من شخص فرض عليها على الرغم من أنه غير مستقر وغير متزن ومزواج سيئ السلوك مستهتر . دون أن يتركا لها حرية الاختيار أو إبداء الرأي . فكان الثمن أنها ذاقت معه العذاب ألواناً . وعاشت معه حياة فيها المرارة والألم والحرمان ، مما أدى في النهاية إلى إصابتها بالمرض النفسي الذي كاد يؤدي بها إلى المرض العقلي .

مما سبق نرى أنه إذا أردنا أن يعيش أبناؤنا سعداء يُحِبون ويُحَبون ينبغي أن نتيح لهم حياة هانئة في طفولتهم ، وفهم حاجاتهم النفسية في مراهقتهم . وإتاحة الفرص لهم للاختلاط في حياة اجتماعية مناسبة لهم . حيث يلتقون بأبناء جيلهم ويكتسبون من صداقتهم لهم الشعور بإنسانيتهم . وذلك لأن مركب النقص يبدأ أولا نتيجة الأخطاء التربوية

التى كثيراً ما يرتكبها الكبار عن غير قصد ، والعادة أن يأتى مصحوباً بمركب الذنب الذى يترتب عليه أن يصابوا بالخجل والشعور بالقلة والتفاهة فيرتبكوا فى تصرفاتهم ويعتقدوا أنهم غير مرغوب فيهم اجتماعياً . . ويصابوا فى النهاية بالاضطراب النفسى .

* * *

كيف تخلصت « منى » من داء السرقة

جاءتنى والدة تلميذة بإحدى المدارس الثانوية تشكو من أن « ابنتها تكرر رسوبها فى السنة الثانية ، وارتكبت عدداً من السرقات ، وكان اتجاهها أن تسرق كتب زميلاتها وأدواتهن ، كما تكرر هروبها من المدرسة » .

كانت التلميذة ابنة لرجل دخله الشهرى بسيط لا يكاد يسد حاجات الأسرة الضرورية ، ويعيش فى جهة بعيدة عن المدرسة ، بحيث تضطر الفتاة « منى » إلى المشى مسافة طويلة لركوب الترام ، والفتاة هى الإبنة الكبرى ، ولم يرزق والدها من بعدها بغير ابن واحد . ولم يقطع هذا الرجل من التعليم إلا مرحلة التعليم الابتدائى ، وكانت نفسه تشتاق إلى أن يتم تعليمه ، وازداد شغفه بالتعليم حتى أنه كان يقوم بتعليم زوجته الأمية ، كما كان يعلم أولاده بنفسه ، ويشرف عليهم إشرافاً شديداً يتخلله الضرب الشديد والقسوة والإيذاء .

وكان دخل الوالد عندما أنجب ابنته هذه فى مستوى أعلى من دخله الحالى بدرجة كبيرة . وكانت الفتاة مدللة تجاب كل مطالبها .

ذهبت الفتاة بعد إنخفاض دخل الأسرة وزيادة مسئوليات والدها العائلية إلى المدرسة محرومة من تلبية رغباتها ، غير مدربة على مقاومة نفسها ، يضاف إلى هذا أن انخفاض دخل الوالد كان السبب فى حنقه وقسوته على أبنائه .

قضت الفتاة المرحلة الابتدائية والإعدادية فى مدرسة قريبة من المنزل ، ثم انتقلت إلى مرحلة التعليم الثانوى وفيها هبط مستواها بالنسبة لغيرها من التلميذات ، وربما كان سبب هذا الهبوط عدم ملاءمة ظروفها المنزلية لأداء واجباتها ، واضطراب حالتها النفسية نتيجة لقسوة معاملة والدها لها

كانت هذه الفتاة متوسطة الذكاء ، وكانت معاملة والدها لها تختلف كل الاختلاف عما يجب نحو شابة فى سن المراهقة . فكانت الأم تقسو فى معاملتها وتمنعها من الخروج إلا إلى المدرسة . وكانت فى بعض الأحيان تقوم بضربها حين تعصى لها أمراً . وازداد توتر العلاقة بين الفتاة ووالديها . وبالإضافة إلى ذلك كان جو المدرسة خالياً من العمل المشوق ، وليس به نوع من الاتصالات الاجتماعية الصالحة بين الطالبات ، أو بينهن وبين المدرسات ، فلا عطف ولا فهم ، ولا تقدير ولا توجيه ولا نجاح . وازدادت شكوى المدرسة من « منى » لسوء سلوكها وارتكابها السرقة مرات متكررة غير مبالية بأى نوع من العقاب أوالتهديد أوالوعيد فى المدرسة والمنزل ، مما أدى إلى ضرورة طلب الاستشارة الطبية النفسية لعلاجها .

استمرت « منى » تتردد علىّ لعلاجها عدة أشهر أمكننى من خلال الجلسات النفسية أن أكتشف الدوافع التى كانت كامنة وراء انحراف سلوكها ، وفى نفس الوقت استطعت أن أتبين بعض المواهب التى كانت تتمتع بها دون أن تعلم . فبدأت فى تقويم سلوكها ، وإعادة الثقة إلى نفسها ، وتنمية مواهبها ، وتشجيعها على الانتظام فى الدراسة مما أدى إلى توقفها عن السرقة وتفوقها فى الدراسة ، واقتناعها بأهمية المواظبة على الذهاب إلى المدرسة .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد لجأت إلى توجيه الوالدين إلى الأسس التربوية الصحيحة فى طريقة معاملتها لابنتهما فى المواقف المختلفة ، مع إغداق الحب والعطف والتشجيع والفهم فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتها . ومما ساعد على نجاح العلاج تعاون الوالدين فى سبيل تحقيق الشفاء لها — — وقد حرصت علىّ إعطائها بعض الأدوية المهدئة التى يمكن أن تساعدها على التحكم فى انفعالاتها وتكيفها مع مجتمعيها ، المنزل والمدرسة .

التحليل النفسى :

نشأت « منى » فى بدء حياتها فى بيئة ميسورة الحال نسبياً ، تجاب مطالبها دون تأخير . فحين ذهبت إلى المدرسة الثانوية وشعرت بالحرمان بسبب انخفاض دخل الوالد أدى ذلك إلى حرمانها من الكثير مما كانت تتمتع به فى المرحلة السابقة ، وأصبحت غير قادرة على مقاومة رغباتها . وكذلك انخفاض دخل الوالد وزيادة الشكوى منها فى المدرسة لسوء

سلوكها وتكرار حوادث السرقة ، كان السبب فى ضيق الوالد بها والقسوة عليها ولاسيما عند ملاحظته إياها فى الدراسة .

فإحساس « منى » بالحرمان الشديد من الحب والعطف والحنان ، يضاف إلى ذلك المعاملة التى كانت تلاقيها فى المنزل والمدرسة ، كل هذه العوامل دفعتها إلى كراهية الأسرة ، والهروب من المدرسة وعدم الانتظام بها .

ومن الملاحظ أيضاً أن « منى » حين لم تشعر بقيمتها فى المنزل وفى المدرسة من الناحية العلمية والاجتماعية ، اندفعت لتسرق ، وربما لجأت إلى السرقة كى تحقق مجموعة رغبات فى وقت واحد . فهى تسرق الكتب من زميلاتها انتقاماً للناحية التى كانت تود أن تتفوق فيها وفى الناحية العلمية . وتبيع هذه الكتب لتشترى بثمنها بعض الملابس المثيرة ، ولتذهب إلى الخيالة مثل زميلاتها اللاتى ينتمين إلى عائلات غنية ، كى تعوض الحرمان الذى تعانيه حالياً ولا تستطيع مقاومته .

الأخطاء التربوية :

وتتلخص هذه الأخطاء فيما يلى :

١ – تدليل الأسرة للفتاة فى المرحلة الإبتدائية والإعدادية فى الوقت الذى كان فيه دخل الوالد متيسراً ، وذلك بإجابة طلباتها وعدم إعطائها الفرصة للاعتماد على نفسها وتحمل بعض الحرمان ، لأن كثيراً من حاجات الطفل ورغباته تتعارض مع الأوضاع والقيود الاجتماعية فيما بعد . ولابد للطفل أن يتعلم تدريجياً كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل

أو بالتعديل كى يعيش وفقاً للواقع . هذه القيود التى تفرض على رغبات الطفل وسلوكه لازمة لتنظيمه ، وهى الدعائم الأساسية فى عملية التربية ، ولكن نجاحها دون أن تنال من صحته النفسية يتوقف إلى حد كبير على حسن تطبيقها من حيث اختيار الوقت المناسب والطريقة الملائمة .

٢ – سوء معاملة الوالد لمنى والقسوة عليها ولاسيما أثناء قيامه بتعليمها ، أدى إلى عدم الاستماع إلى أى توجيه من ناحية ، وكراهيتها للدراسة والمدرسة مما دفعها إلى الهروب منها وعدم الانتظام بها من ناحية أخرى .

٣ – عدم تقدير الوالدين للانفعالات المختلفة التى كانت تتعرض لها ابنتهما فى هذه المرحلة « المراهقة » التى كانت تمر بها وقتئذ من حيث المعاملة وحرمانها من العطف والتقدير والتوجيه السليم المتفهم لحاجاتهم النفسية .

٤ – عدم محاولة الوالدين نقلها إلى مدرسة قريبة من المنزل ، وذلك لتخفيف المجهود الشاق الذى تبذله للوصول إلى المدرسة ، مما يؤدى إلى اضطرابها نفسياً وجسمياً ، وتفضيلها فى بعض الأحيان عدم الذهاب إليها وتوفير ذلك المجهود المضنى .

٥ – عدم محاولة المدرسة فهم الدوافع النفسية الكامنة وراء اتجاه الفتاة نحو السرقة ، فإن المدرسة لو أعطت هذه التلميذة فرصة النجاح فى أى عمل ذى قيمة لشعرت بالرضا من نفسها ، ولم تتجه إلى السرقة . فلكل تلميذ نواح طيبة يمكن كشفها وإبرازها بحيث ينجح فيها ويشعر بقيمة نفسه أمام إخوانه .

٦ – يضاف إلى ما سبق أن البيئة الأسرية التى عاشت فيها منى ،

كانت غير ملائمة لتنشئتها تنشئة نفسية سليمة ، بين والدين غير متفاهمين وغير قادرين على إغداق الحب عليها ، فشعرت بحرمان شديد أدى بها إلى الانحراف .

بذلك يمكننا أن ندرك من هذه الحالة أهمية فهم حاجات الطفل النفسية فى كل مرحلة . لأن هذا الفهم يقوم بمهمة وقائية . فهو يحول دون تحول الانحراف إلى اضطراب .

فالتنشئة النفسية الصحيحة للطفل أصبحت اليوم ضرورة جوهرية . لا سبيل إلى الاستغناء عنها أو التساهل فيها إذا شئنا أن ننهض بواجبنا نهوضاً سليماً وكاملا إزاء الطفل وإزاء الوطن على حد سواء ، أى إذا شئنا أن نعد طفل اليوم لتحمل تبعات الغد مع القدرة على أن ينعم بحياته معاً .

فقدت الحب فأصابها الاضطراب النفسى

كانت فى الخامسة عشرة من عمرها . يتيمة الأبوين ، يعولها خالها وزوجته ، وهذا الخال من صغار التجار . .

وقد جاءتنى زوجة الخال ، وهى امرأة فى الثلاثين من عمرها ، تبدو عليها مظاهر الاتزان والجمال والاحترام . فلم تترك هذه السيدة فى نفسى فكرة قاتمة عنها . وشكت لى زوجة الخال من الفتاة فقالت :

« إنها فتاة صحتها الجسمية جيدة ، موفورة العافية ، ومع ذلك

لا تقوم بشيء من أعمال البيت ، وتثير الشغب والإزعاج والفوضى . . فهي لا تبدى عرفاناً بالجميل لما يبذله خالها وما أقدم عليه من أجلها من تضحيات . . إنها فتاة شديدة العناد ، كثيرة المكر ، لا يوثق بها ، ولا يعتمد عليها ، يغلب عليها الشرود والسهو ، حتى أنني لا أطمئن على طفلي البالغ من العمر ثلاث سنوات وهو معها ، خشية أن ينزل به مكروه ، وهي غافلة عنه » .

وبدراستي للحالة تبين ما يلي :

كانت الفتاة تتمتع بطفولة ناعمة مع الوالدين يحيطانها بالعطف والحب والحنان ، والد الفتاة كانت حالته المالية ميسورة نوعاً ، وكان يقيم في إحدى القرى ، إلا أنه كان يدمن الخمر ومريضاً بالسل وكانت الفتاة في حياة والديها موضع رعاية وحب لا حدود لهما .

وفي ذات يوم كانت الفتاة وحدها بالبيت ، وكان والدها في المرحلة الأخيرة من مراحل مرض الدرن ، وطلب منها أن تأتيه بكوب ماء . . وجاءته بالكوب فتجرعه ، ثم سعل وشرق ، ولم يلبث أن سقط على سريره ميتاً . وصاحت الفتاة مستغيثة ، ولكن أحداً لم يسمع استغاثتها ولم يخف لنجدتها . . ومع ذلك لم تجسر على الهرب من البيت حتى لا تتركه وحيداً . . واضطرت للبقاء معه تحدق فيه مرتاعة وهو ميت ، إلى أن حضرت أمها من الخارج . . هذه هي حادثة وفاة أبيها .

ولما مات الوالد فقدت الفتاة الحياة الهادئة المستقرة ، وبدأ الاضطراب يسود حياتها وحياة والدتها ، وأصبح كل شيء قاتماً أسود أمامها . وكانت الأم سيئة التصرف . . صفت متروكات زوجها ، وكانت امرأة قليلة

الخبرة ، فأدركت بعد التصفية والبيع مباشرة أنها غُبنت ، فحاولت أن ترجع فى البيع ولكن دون جدوى . وأدت هذه الصفقة الخاسرة إلى تدهور الحالة المالية ، وشعرت الفتاة بالحرمان والمعاناة نتيجة هذه الظروف التى كانت تحيط بها .

وبعد نصف عام تقريباً ، عند عودة الفتاة ذات يوم إلى المنزل وجدت أمها مدلاة من قضبان النافذة والحبل يحيط بعنقها ، لقد انتحرت نتيجة إصابتها بالاضطراب النفسى بعد وفاة زوجها ، وسوء الظروف من حولها حتى أن الحياة فى نظرها أصبحت لا تستحق أن تحياها نتيجة للاكتئاب الذى حل بها أخيراً .

انتقلت الفتاة بعد وفاة والدتها إلى منزل خالها الذى تولى رقابتها بعد وفاة والديها . وكانت زوجته غير راضية عن قدومها ، فكانت تسئ إليها ، وتقسو فى معاملتها ، ولم ترع الحالة النفسية التى كانت فيها الفتاة نتيجة الصدمات المتتالية التى مرت بها .

كان الخال رجلا حازماً ، يحكم أهل بيته بدكتاتورية لا تقبل المراجعة . . الكلمة دائماً كلمته . . والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادتـه ، لأنه كان يعتقد أنه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من جميع الناس . . كرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل غلطة أو الرجوع فى رأى . . أو أن ينزل إلى مدارك الاعتذار من مجرد مناقشة كلمة أو أمر يصدره أو رغبة يبديها .

كان هذا الخال الطاغى المستبد لا يستطيع أن يعوض الفتاة عن الحب والحنان ، فكانت تشعر بالحرمان والألم والمعاناة النفسية لإحساسها

بالوحدة وافتقادها والديها .

وكثيراً ما كانت زوجة خال الفتاة تغادر البيت بعد الظهر ، وتترك لها مهمة تنظيفه وحدها . فتنتهز الفتاة فرصة هذه المذلة وتمضى إلى حجرة قليلة الضوء وتستلقى فوق الأريكة . . وتطلق العنان لخيالاتها وأحلام يقظتها . . وعندما تستولى عليها هذه الحالة من الشرود ، لا يسعها أن تعى شيئاً آخر مما يجرى حولها ، حتى أن زوجة خالها عندما عادت من الخارج ذات مرة ظلت تطرق الباب بكل قوتها نصف ساعة تقريباً دون أن تسمعها الفتاة . . ولما سمعتها أخيرًا دخلت السيدة وهى تكاد تنشق من الغيظ . . وجعلت ترمى الفتاة بالمكر والخبث ، ورفضت أن تصدق أنها لم تسمعها . وبطبيعة الحال لا يمكن أن تطمئن الفتاة إلى زوجة خالها ، ولا أن تنفضى إليها بأحلام يقظتها . . كانت تعتذر للسيدة كلما شردت بأعذار وهمية غير معتدلة تزيد من إقناع زوجة الخال بأن الفتاة خبيثة ماكرة ناكرة للجميل ، عنيدة .

وحرصت الفتاة أن توضح لى أن الأفكار التى تنهال عليها فى أحلام يقظتها ، ولا تريد أن تتخلص منها ليست على الدوام أفكاراً محزنة أو مخيفة ، بل فى كثير من الأحيان يكون لها طابع سار ، وذلك عندما تحملها الذكريات إلى أيام طفولتها السعيدة .

وهذه الذكريات الطفلية واضحة كل الوضوح ، ويمكن أن تسيطر على ذهنها ، فى أى وقت أثناء قيامها بعمل ، أو أثناء مداعبتها لابن خالها . . بل وربما أثناء سيرها فى الشارع . وأكثر ما يكون ذلك وهى سائرة فى الطريق صباحاً أو وهى نائمة بالليل . فقد رأت ذات ليلة حلماً من الأحلام

المتعلقة بماضيها فى بيت أبويها . . وهو كثير الحدوث فى معظم الليالى . . وكانت هذه الحالة من الشرود وأحلام اليقظة لا تستولى عليها أثناء وجودها فى المدرسة .

وهى تكره أعمال البيت . . بل وتكره مداعبة ابن خالها الطفل ، وتشعر عند مداعبته بضيق شديد لأن زوجة خالها كانت تزجرها دائماً عند أول بادرة تذمر من ابنها .

ومهما حدث للفتاة من متاعب ، فإنها لا تشكو حالها إلى زوجة خالها . لأن نتيجة الشكوى دائماً هى غضب زوجة الخال التى تصب عليها الشتائم والنعوت القبيحة . مثل الغباء والعناد والحقارة . .

وقد حصلت على تقرير من المدرسة . . ومنه ظهر بوضوح أن مسلك الفتاة فى المدرسة يختلف تماماً عن مسلكها فى البيت . فمعلمة الفصل تصفها فى التقرير بصفات النشاط والذكاء واليقظة وحسن الإصغاء ، والاعتماد على النفس والأمانة فى العمل . علاقتها بزميلاتها فيها المرح والتهذيب . وعندما عرفن منها أنها تعانى من سوء المعاملة فى بيت خالها نقلن ذلك إلى المعلمة ، وعلى هذا الأساس أرسلت المدرسة التقرير موضحة فيه كل ما سبق ذكره .

وقد تبين أيضاً اعتراف الفتاة نفسها بطريقة غير مباشرة بأن سلوكها فى البيت غير اجتماعى ، فهى دائماً تبدو لمن لا يعرف حقيقتها شاردة مشاغبة عنيدة كسولا . . فى حين أن سلوكها فى المدرسة لا غبار عليه إطلاقاً .

التحليل النفسى :

يلاحظ فى الحالة السابقة أن الفتاة كان انحرافها الكامن لا يظهر إلا فى البيت ، أما فى المدرسة فلا . . لأن الصدمة التى حدثت للفتاة بموت أبويها لا تظهر أعراضها إلا فى إطار معين هو البيت . .

وبإعادة النظر فى حالتها تبين أن الذكريات المؤلمة التى تراودها تسبب لها أحياناً عذاباً شديداً . . أما أحلام اليقظة واسترجاع الذكريات السارة فكانت تشعرها بلذة عظيمة .

وأحلام اليقظة شىء مألوف . . وكلنا نجربه فى بعض الأوقات وكل واحد منا إذا اشتد سخطه على ظروفه الواقعية يهرب منها إلى عالم الأحلام ، وهو يعبر عنه فى التحليل النفسى بأننا نسحب جانباً من طاقتنا الحيوية من عالم الواقع فيزيد ذلك من قوة الأوهام والتخيلات ، ويجسم أهميتها . . وهى عملية طبيعية لا غبار عليها بشرط أن تظل علاقتنا بالعالم الخارجى من حولنا مستقرة .

أما إذا كان الجانب المسحوب من طاقتنا الحيوية المخصصة بعالم الواقع ضخماً للغاية فلابد فى هذه الحالة من أن يختل ميزان علاقتنا بالواقع ، ويصبح تكيفنا معه أمراً شاقًّا عن المعتاد . .

والمفروض أن الشخص الذى يستطيع أن يطرد التخيلات اللذيذة التى تستولى على ذهنه متى دعاه نداء الواجب للقيام بأعماله العادية ، يطوى أحلام اليقظة جانباً ويتركها إلى وقت ساعة النزهة أى عندما يأوى إلى فراشه لينام .

إلا أن من الناس من يلجأ إلى أحلام اليقظة مكرهاً . لأن الحياة الواقعية صارت مثار آلام شديدة له . . يعجز عن احتمالها . . ومتى هرب إلى أحلام اليقظة فقد لا يتيسر له التخلص من سلطانها ويفقد بالتالى كل اهتمام بالحياة الواقعية العادية ، بعد أن تجمع اهتمامه كله فى عالم الأحلام والأوهام . . وهذا ما يعتبر « حالة مرضية » كما هو الشأن فى الحالة التى ذكرتها . .

فالفتاة لم تستطع التغلب على الصدمة ، فهى لم تستطع أن تنسى تمام النسيان الكوارث المؤلمة التى نزلت بها . . ولذا كانت هذه الكوارث تبرز إلى مستوى القدر على شكل ذكريات أليمة مثيرة للانقباض والفزع . . وفى الوقت نفسه جاء تغيير البيت بعامل جديد ، إذ أبعدت عن الجو المألوف لها العزيز عليها . . فكانت تحاول تعويض هذا الحرمان عن طريق أحلام اليقظة .

وكانت الفتاة كلما شعرت بالارتياح فى عالم الواقع وأملها أن ترتبط بصلات الصداقة الودية لم تجد فى نفسها حاجة إلى الأوهام التى تبعدها عن ذلك الواقع اللطيف . وهذا تماماً هو حالها فى المدرسة . أما فى البيت فلا تستطيع أن تشبع رغبتها فى الصداقة والطمأنينة والإرتياح ، فضلاً عن أنها تشعر فى بيت خالها بأنها عالة على الرجل وزوجته : وأنهما يتحملانها على مضض . . وهى التى كانت معززة مكرمة محبوبة فى بيت أبويها . . ولا تطيق أن تتصور نفسها شبه خادم ، تقوم برعاية الطفل الصغير وتنظف البيت ، وإلا رميت بالجحود من زوجة خال لا تفهم همومها ، ولا تدرك آلامها ، ولا تعطف عليها . . وفى هذا الإطار تهرب من الواقع فتشبع كل رغباتها المكتومة فى عالم الأوهام .

عوامل الاضطراب :

التدليل الزائد الذى كانت قد افتقدته بدأ ظهوره منذ طفولتها .

إذ كانت كل رغباتها مجابة مهما كانت ، وعدم إعطائها الفرص للاعتماد على نفسها وتحمل بعض الحرمان .

الصدمات النفسية التى تعرضت لها فى طفولتها عند وفاة والدها العزيز عليها وهى بجانبه ، ثم المعاناة المادية والحرمان بعد وفاة الوالد وسوء تصرف الوالدة ، ثم وفاة والدتها بصورة أذهلتها وغرست الرعب والخوف داخلها .

سوء معاملة زوجة الخال وعدم تقديرها لما كانت تعانيه نفسياً من الحرمان ، وتماديها فى القسوة عليها وإدخال الإحساس فى نفسها بأنها عالة عليهم ، وأنهم يتحملونها على مضض . . وهى التى كانت معززة مكرمة محبوبة فى بيت أبويها ، ومعاملتها كخادم تقوم بتنظيف البيت ورعاية الصغير .

العوامل السابقة أدت إلى هروبها من عالم الواقع إلى أحلام اليقظة . . فكانت على وشك الإصابة بعلة نفسية خطيرة لولا المبادرة بالعلاج النفسى .

وكان من المقومات الهامة التى لجأت إليها قبل البدء فى علاجها نفسياً أن أقنع زوجة الخال بضرورة حسن التفاهم مع الفتاة ، وتقدير حالتها المرضية ، لتغير اتجاهها نحوها ، وحتى يمكنها أن تنال حب الفتاة وطاعتها ومساعدتها فى أعمال المنزل ورعاية طفلها . .

واستمر علاج الفتاة ، وفى نفس الوقت وجهتُ زوجة الخال إلى

كيفية معاملة الفتاة ، وكانت فى أثناء الجلسات النفسية تتحدث عن فجائعها بإفاضة وانفعال . . فأدى ذلك إلى تخلصها تدريجياً من آثارها الباقية . وفى الوقت نفسه ، مهدت للفتاة بواسطة إحدى زميلاتها عقد صداقات مع بنات من سنها بحيث تشعر معهن بالرضا والارتياح والسرور فلا تلجأ إلى أحلام اليقظة . . وبالفعل لم يمر عام واحد حتى ظهر عليها تطور حسن جعلنا نطمئن عليها .

وكانت زوجة الخال حين تلاحظ تغير سلوك الفتاة إلى الأحسن وتخلصها من مظاهر الانحراف فى السلوك الذى كانت تشكو منه يزداد تعاونها بحسن معاملتها للفتاة ، ومحاولة فهم حاجاتها النفسية وتلبيتها . مما ساعد على نجاح العلاج النفسى .

مما سبق ، ندرك أن هذه الفتاة لم تكن منحرفة السلوك ، وأن الصدمات النفسية التى تعرضت لها فى مختلف الظروف عرضتها للاضطراب النفسى ، ولما عاد إليها الحب والعطف اللذان افتقدتهما بدأ ظهور الاتزان النفسى وزالت أعراض الاضطراب .

عادت إليها الحياة بعد فقدها

بعض الناس عاجزون عن هضم التجارب المؤلمة التى تحدث لهم ، إذا حدثت لهم بصورة مفاجئة وعنيفة ، بحيث يكون التكيف معها شيئاً فوق طاقاتهم .

وعندما يكون للتجربة الانفعالية هذا التأثير الشديد الوطأة نسميها صدمة نفسية ، وهذه الصدمة قد تتمخض أحياناً فى ظروف معينة عن عصاب أو مرض نفسى شامل .

وفيما يلى نوضح قصة تأثير الصدمة النفسية على سلوك الفرد :

كان فى السابعة عشرة من عمره . . ماتت أمه فذهب ليعيش مع شقيقته وزوجها ، فأهملته أخته وشأنه ولم تهتم بأموره الشخصية والنفسية لانشغالها بمنزلها وأولادها وعملها . فصار يقضى معظم وقته فى الأزقة والطرقات حتى صار فتى منحرفاً . .

وبعض الشكوى من انحرافه تتمثل فى حب التشرد وعدم الرغبة فى الالتحاق بأى نوع من الدراسة أوأى عمل ، مما أدى فى النهاية إلى تنبه أخته إلى انحراف سلوكه ، وجاءت به للعيادة للعلاج .

كان « ماجد » برغم وسامته ومظهره الحسن خجولاً وبطئ الحركات متحفظاً ، مما يدل على أنه شديد السلبية دمث الخلق ولذلك فإن انحرافه ليس من النوع الذى يخشى منه على الناس وأنه من السهل إصلاحه .

وبدراسة الحالة تبين ما يلى :

كان يعيش مع والدين متحابين . . كان هو الطفل الثانى ، حيث إنه كان له أخت تكبره بخمسة عشر عاماً ، إذ أنه جاء بعد أن مات له أربعة أخوة ذكوراً وإناثاً لم يرهم . كان يسكن مع والديه وأخته فى شقة مكونة من غرفتين ، حيث إن حالة الأسرة المادية غير متيسرة . وكان الوالد يعمل عاملا فى مستشفى ، وكان يتقاضى أجراً بسيطاً يكاد يغطى مصاريف الأسرة الضرورية . .

كان ماجد قد اعتاد أن ينام فى السرير بين والديه وأخته كانت تنام على أريكة مقابلة . .

تزوجت أخته وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ومن ذلك الوقت فقد ظل ينام بين والديه حسب رغبته ، ولم يمانع الوالدان فى ذلك حيث إنهما اعتادا أن يلبيا كل طلباته مهما كانت صعبة التحقيق .

وفجأة مرض الوالد وتوفى فى المستشفى ، وكانت صدمة عنيفة على ماجد وبدأ يشعر بالمسئولية ، فتألم لحال أمه كثيراً لإحساسه بأنها وحيدة فأخذ يرعى شئونها ويخدمها ليحل محل والده . . كان ماجد متعلقاً بأمه تعلقاً شديداً وكان يحاول دائماً أن يساعدها فى كل ما تريد كى تعيش وتظل معه ترعاه وتؤنسه ، ولكن الأقدار لم تتركه على هذا الحال ، وبعد مرور ثلاث سنوات من وفاة والده توفيت الوالدة فى حادث مروع ، إذ كانت تعمل فى مصنع (فمزقتها آلة المصنع فرماً) وجاءه إلى البيت من استدعاه وأخبره بأن أمه مغمى عليها فى المصنع . فذهب إلى هناك مع أخته فأخبرتهما الإدارة بما حدث ، فسقط ماجد فاقد الوعى ، وبعدها ذهب مع أخته إلى البيت حيث ظلت ساهرة عليه طول الليل ، لأن حالته كانت سيئة جداً من فرط الرعب . . ولم تسمح له بتشييع الجنازة ، وحاول أن يبكى فامتنعت عليه الدموع ، فأخذ يتشاغل بلعبه التى كانت أمه تتعجب دائماً من براعته فيما يفعله بها .

تم انتقال ماجد إلى بيت أخته بعد أن باع أثاث منزل أمه وتقاسما ثمنه ، وأبت أخته أن تتقاضى منه مقابلا لإقامته عندها . ثم عمل صبى ميكانيكى شهرين ولكن لم يعجبه العمل فتركه .

كان دائماً يتذكر أمه ، وصورتها لم تفارق حياته وحادث الموت البشع يؤرقه ليلا حتى إنه كان يصرخ أحياناً أثناء نومه ويقوم فى حالة فزع شديد . .

كان ماجد أثناء العلاج بالجلسات النفسية حين يذكر حادث وفاة أمه يجهش بالبكاء الشديد وينتحب بعنف . .

ثم التحق ماجد بعمل آخر فى فندق ، ولكن كان عمله ذبح الحيوانات ، فرفض هذه المهنة وتركها إلى التجارة ولكنه كان لا يحبها أيضاً . . ولم يرض معلمه عن كسله فطرده . . والتحق بعمل آخر ففشل فيه أيضاً . . وكان لا يدرى لذلك سبباً ، على الرغم من أنه كان فى كل مرة يفصل فيها عن العمل يتألم تألماً شديداً . .

وصار يقضى وقته هائماً فى الطرقات متسكعاً بدون هدف ولا أمل ولا رجاء . . وكان زوج أخته وولى أمره لا يكف عن مطالبته بالالتحاق بعمل وتعلم مهنة ، وكان يصاحب ذلك إهانة وسب وسوء معاملة ، وبث فيه الإحساس بأنه يعيش عالة عليهما. كانت هذه المعاملة تجعله يقضى النهار فى الطرقات ، ثم يعود إلى البيت فى المساء وأحياناً كان يقضى الليل هائماً ينام فى أى ركن من أركان الشارع حتى أنه كان يقبض عليه بتهمة التشرد . . وأخيراً جاءت به أخته للمشورة الطبية النفسية والعلاج . . .

لم يكن له أصدقاء إطلاقاً ، بل إنه لم يكوِّن معى أيضاً صلة وثيقة على الرغم من طول مدة العلاج وكثرة اللقاء فى الجلسات النفسية . وإن كان قد صار أكثر تبسطاً فى الحديث . . وتدريجياً زال انقباضه ، وأصبح

أقل نسياناً وزاد اهتمامه والرغبة فى الالتحاق بالعمل ، فالتحق بعمل كتابى فى مدرسة كبيرة ، وانتظم فى هذا العمل ولم يظهر عليه بعدها أعراض الانحراف . . فقد زال الانحراف نهائياً بانتظامه فى العلاج النفسى وبعض الأدوية المهدئة ، يضاف إلى ذلك توجيه أخته وزوجها عن كيفية معاملته حتى يستقيم أمره ويحقق العلاج النفسى النتيجة المرجوة . فكانت استجابتهما لذلك من العوامل الهامة التى ساعدت على علاج ماجد واختفاء الانحراف فى سلوكه .

التحليل النفسى للحالة :

إن حالة ماجد توضح تأثير الصدمة النفسية عليه مما أدى إلى ظهور الأعراض النفسية فى صورة رفضه للعمل والتشرد اللذين يعتبران مظهرين للانحراف . ويلاحظ أن هذه الأعراض لم تظهر عليه إلا بعد وفاة الأم بهذه الطريقة البشعة . . وبعد إقامته مع أخته وتعرضه لسوء المعاملة من زوجها ازدادت حالته تفاقماً بحيث أدى الأمر لضرورة الالتجاء للطب وطلب المشورة والعلاج الطبى والنفسى . ومن المشاهد أيضاً أنه فوجئ بفجيعة أمه ، وأن المفاجأة كانت مؤلمة فوق قدرته على احتمالها حتى إنه فقد الوعى وأغمى عليه ثم قضى الليل فى فزع سهرت أخته عليه طول الليل . . وانصرف إلى إحدى لعبه فى الوقت الذى كانت فيه أمه توارى التراب . .

وهذا كله ليس عادياً على الإطلاق ، أن يصدر من فتى كبير عمره يومئذ ١٤ سنة مع أنه لم يشاهد أمه فى تلك الحالة . . بل سمع فقط ما

حدث من أفواه رجال المصنع ونسائه وهو نفسه عبر عن هذه الصدمة بقوله : « لم أستطع الانقطاع عن التفكير فيها فى أية لحظة أو عن تخيل منظرها الفظيع بعد هذا الذى حدث لها »

ثم حدث أن كبت كل ماله صلة بهذا الحادث المؤلم ، ومن هذا الكبت مقاومته ضد استعادته . . لأن تلك الاستعادة تسبب له ألماً ممضاً . . فنتجت كل الالتواءات فى سلوكه ، وتفاقمت الانحرافات يوماً بعد يوم . . يجب ألا نغالى فى تجسيم أهمية التجربة المسببة للصدمة . . فنفس التجربة التى تحدث الصدمة عند فتى معين فيصير عصبياً (مريضاً نفسياً) لا يكون لها أثر تقريباً عند فتى آخر . . ومهما يكن من شىء فالتشرد عند ماجد حل محل المرض النفسى ، وبهذا التشرد كان ينجو بنفسه من مرض الاكتئاب .

وأياً كان الأمر فإن موت الأم بهذه الصورة المؤلمة ما كان ليحدث هذا الأثر لو لم يكن الفتى متعلقاً جداً بأمه ومرتبطاً بها تمام الارتباط . . يضاف إلى ذلك أنه كان مرتبطاً بوالديه ينام فى فراشهما . وبعد أن أخلت أخته الأريكة التى كانت تنام عليها وذهبت إلى بيت زوجها لم يحل محلها على الأريكة بل ظل ينام بين أبويه مع أن عمره يومئذ كان ١٢ سنة . وبعد وفاة أبيه ظل ينام مع أمه ، ويعنى بها بدلا من أبيه ، كل هذا ينبئ بأن ماجداً كان متقمصاً شخصية أبيه بصورة غير عادية ولذا كانت صلته بأمه غير عادية . . كان كأبيه تماماً . . وليس معنى هذا طبعاً علاقة شاذة . . بل المراد منها علاقة أعمق من علاقة الأمومة العادية ، ولذا كان وقع موتها عليه يعنى أكثر من مجرد فقدان الأم . .

وإنى لا أمانع من أن اتجاه الطفل بمحبته نحو أفراد أسرته ولا سيما

الوالدين أمر ضرورى للنمو الانفعالى السليم . ولكن من الطبيعى أيضاً أن تقل هذه العواطف العنيفة قرب المراهقة ويقل الارتباط بالوالدين وأفراد الأسرة قبل هذه المرحلة ، لأن مرحلة المراهقة هى وقت انتقال الحب من داخل الأسرة إلى خارج محيطها ومن الأم والأب والأخوة إلى أفراد من الجنس الآخر غرباء عن هذا المحيط القريب من الذات .

ولذا نرى أنه فى حالة استمرار التعلق بأفراد الأسرة فى النمو وعدم توقف هذا النمو قبل المراهقة يتعرض الفتى المراهق بما يسمى « تثبيتا » على موضوعات حبه . ولا يستطيع أن يتحول بحبه من أمه أو أبيه إلى شخص غريب عن الأسرة . المفروض أنه الزوجة ، وهذا التثبيت من الأصل الكامن فى بعض أنواع الأمراض النفسية . وتكفى الظروف والمناسبات لجعله مرضاً نفسياً ظاهراً أو انحرافاً ساخراً ، وفى حالة ماجد كانت « الصدمة النفسية » بموت الأم فجأة هى هذه المناسبة السيئة .

الأخطاء التربوية فى هذه الحالة :

١ – استجابة الوالدين لطلبات ماجد مهما كان تحقيقها صعباً ، ومن ذلك موافقتهما على نومه فى نفس فراشهما فى صورة مستمرة ، أدى ذلك إلى عدم إعطائه الفرصة للاعتماد على النفس وتحمل بعض الحرمان . لأن كثيراً من رغبات الطفل تتعارض مع قيود المجتمع ، ولا بد للطفل أن يتعلم كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل أو بالتعديل ، فيعيش وفقاً للواقع . فهذه القيود لازمة لتنظيم حياته .

٢ – نوم ماجد بين والديه منذ طفولته واستمرار هذا الوضع حتى بعد

زواج أخته وخلو الأريكة التى كانت تنام عليها ، فالطفل فى نومه لديه القدرة على الإحساس بحقيقة مايدور حوله ، والعلاقات الجنسية تبدو لذهنه الغرير فى تلك المرحلة نوعاً من التهجم أو الاعتداء الصارخ ، الأمر الذى لا يوقظ الغرائز قبل أوانها فقط ، بل هو أيضاً يطبع العلاقات الجنسية فى نظر الصغير بطابع العنف والإجرام . وهذا أدى إلى إحساس الطفل ماجد نحو أمه بأكثر من إحساس الأمومة وحزنه الشديد عليها عند سماعه خبر وفاتها ، مما أدى إلى إصابته بالصدمة النفسية ، ويضاف إلى هذا أن الانحراف الكامن الذى ولد فى نفسه نتيجة هذا الوضع الخاطئ بنومه بين والديه أصبح انحرافاً سافراً حين سمحت الظروف بذلك بعد وفاة أمه .

٣ – عدم اهتمام أخته بشئونه بعد وفاة أمه بانشغالها بأولادها وشئونها أفقد ماجد عطف وحب أمه بعد وفاتها ، ولم يعوض عنه ولم يجد له بديلا ، فشعر بالوحدة التى ظهرت آثارها بوضوح فى مرحلة المراهقة فأصابه الإحساس بالقلق وعدم الاستقرار لحرمانه من حب أمه ، لأن هذا الحب هو عماد الحياة الإنسانية ، ومن الضرورى أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية الحياة ، فإن الحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ، ويدفع المحروم منه إلى الانحراف فى السلوك .

٤ – سوء معاملة ولى أمره (زوج أخته) واستمرار قذفه بالسب الموجع بالنفس لعدم توفيقه فى أى عمل وبث الإحساس فى نفسه بأنه يعيش عالة عليهم . كان هذا التأديب أكثر من التأديب البدنى ، بل كان كالطعنات الجارحة ، فأدى ذلك إلى هروبه وقضاء الليل خارج المنزل مما ساعد على

تشرده وانحراف سلوكه .

مما سبق نرى أن التجربة الانفعالية الشديدة الوطأة تحدث أحياناً ما يسمى بالصدمة النفسية ، وأن الصدمة النفسية تسبب اضطراباً شديداً فى العمليات النفسية . . هذا الاضطراب قد يؤدى إلى انحراف كامن تحوله المناسبات والظروف إلى انحراف سافر . . والطبيب النفسى هو الذى يستطيع أن يتعمق فى نفس مريضه وينقب فى لفائف العقل الباطن كى يستطيع الوصول إلى الجذور المترسبة فيه والتى كانت الأساس فى وجود الانحراف الكامن ، فيقوم بعلاجها . . وليس فقط القضاء على المظاهر السافرة فهى أشبه بانتزاع الحشائش الضارة لا مجرد اجتثاثها من فوق سطح الأرض ، لأنها فى هذه الحالة ستعود للازدهار .

حرمانها من الحب .. أدى إلى عصبيتها

كانت فى سن العاشرة الابنة الوحيدة لوالديها . . وقد حضرت مع والدتها لعلاجها من عدة أمراض منها : تأخرها الدراسى واستمرارها فى مص أصابعها وقضم أظافرها . يضاف إلى ذلك أنها عصبية تصرخ وتبكى لأتفه الأسباب وإذا غضبت فإنها تثور وتضرب نفسها . وتخبط رأسها فى الحائط وترفس برجليها . . وهى تغضب فى أغلب المناسبات . . وتصفها والدتها بأنها مهملة فى ملابسها وغير منظمة فى قضاء حاجاتها المختلفة ، إذ قلما تضع شيئاً فى موضعه ، لا تميل إلى استذكار دروسها بمفردها . . تميل

إلى الرسم وقص الورق ، وتقضى فيهما كل أوقات فراغها ، ومع ذلك حسب تقدير والدتها فإنها لم ترسم مع كل هذا رسماً مقبولا قط . .

وبدراسة الحالة تبين أن الفتاة كانت تعيش فى حياة أسرية مضطربة . كانت الأم عصبية المزاج ، تصاب أحياناً بتشنجات هستيرية ، سريعة الانفعال لأتفه الأسباب ، كثيرة الشكوى من أمراض وهمية تؤدى إلى التردد على الأطباء دون جدوى . وكانت شديدة قاسية فى أحيان كثيرة مع الفتاة ، وحين تخطئ فى أى عمل أو سلوك تقوم الأم بضربها ضرباً مبرحاً . وقد ضربتها ضرباً قاسياً عندما اطلعت ذات مرة على نتيجة عملها بالمدرسة ، مما أدى بها إلى كراهيتها للمدرسة والدراسة ، فكانت أحياناً ترفض الذهاب إليها أو تلجأ إلى الهرب منها ، مما أدى إلى تأخرها الدراسى عن زملائها . وبإجراء اختبارات الذكاء عليها اتضح أن ذكاءها فى مستوى ذكاء طفل متوسط عمره إحدى عشرة سنة . ومعنى ذلك أن لديها من المقدرة العقلية الطبيعية ما لا يبرر تخلفها ، بل بالعكس ، كان يُنتظر منها تفوق باهر .

أما الوالد فكان ضعيفاً ليّنًا لا يهتم بشكوى الوالدة من ابنتها ، ويخاف أن يجرح إحساسها ، ويصل خوفه إلى أن يتردد ويتلعثم فى أثناء حديثه معها . ومع ذلك فقد كان يتدخل فى نشاطها . . كانت الفتاة مغرمة بتأليف القصص القصيرة ، فكان الوالد يرى أن هذا لا يتمشى مع المناهج التقليدية للمدرسة ، وفيه مضيعة للوقت ، فيمنعها بكل وسيلة من ممارسة هوايتها ، حتى أنه كان أحياناً يمزق ما تنتجه من كتابات أمامها حتى لا تعيد تكرار ذلك ثانية .

يضاف إلى ذلك قلق الجميع على صحة الفتاة ، إذ أنها ضعيفة من صغرها ، ولعل من أسباب القلق عليها أن أخاها الذى يكبرها بأربع سنوات مات وهو فى سن السادسة .

وقد أجمع جميع مدرسيها على أنها مشتتة الانتباه ، شاردة الذهن . وقد وصفتها إحدى المدرسات بأنها لا تستقر فى الفصل فهى تلتفت مرة ذات اليمين وأخرى ذات اليسار . تتطلع إلى هذه وإلى تلك من زميلاتها . وتعبث أثناء ذلك فيما أمامها من الأدوات . فإذا لم تجد أمامها شيئاً تعبث به أخذت شيئاً من درجها أو درج جارتها لهذا الغرض . وكانت دائماً تلجأ إلى مص أصابعها وأظافرها وتتمادى فى ذلك إذا لم تنبه إلى ذلك . وهى قليلة الصبر على مواصلة عملها ولا تميل إلى إتقانه . وحركاتها عصبية . وقد ضربها والدها مرة عندما كثرت الشكوى منها . . وبعد أن ضربها تولاه الندم الظاهر ، ووصلت الحالة بالوالد أخيراً إلى أنه لا يمكنه ضربها إطلاقاً . ولكنه مع ذلك يوصى المدرسة دائماً بوجوب ضربها بشدة .

وهناك ظاهرة أخرى فى معاملة هذه الفتاة ، تفرد لها حادثة معينة تبين دلالتها ، وخلاصتها أنها قد ادخرت من نقودها مبلغاً من المال فاقترضه منها والدها ليستعين به فى سفره إلى جهة ما على أن يرده لها بعد عودته . ولكنه لم يرده إليها ، وقد مضت عليه أربع سنوات . . وقد ظن الوالد أن الحادث تافه ، وأن على الطفلة أن تعلم أن كل ما يملكه الوالد فهو لها . . ولكن المهم عند الطفلة فى الواقع هو شعورها بالملكية وإشباع هذا الشعور حسياً . . ولروح العدالة المتعلقة بحق الملكية أهمية كبرى فى إشباع الحاجة إلى الأمن .

التحليل النفسى :

هذه حالة طفلة فقدت السلطة الضابطة الحازمة فى المنزل . السلطة المختلطة بالعطف والحب والحنان . . وفقدت الشعور بالأمن لشدة ما يحيط بها من القلق ، نتيجة سوء معاملتها بالمنزل من والديها ، وحرمانها من ممارسة هوايتها التى تعتبر وسيلة للتخفيف عما كانت تعانيه من توتر نفسى داخلى . . ويضاف إلى ذلك ما كانت تلاقيه من قسوة وضرب من المدرسة مما أدى إلى كراهيتها للمدرسة وعدم رغبتها فى المذاكرة وهربها إلى ممارسة هواية الرسم وتأليف القصص . وأخيراً كان ينقصها كثير من التمتع بالحرية ، إذ كان والداها يتدخلان فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها ، وكانا ينزلان بها فى بعض الأحيان أشد ألوان العقاب إذا خالفت لهما أمراً ، أو لم تحصل على درجات مرضية فى الدراسة .

وفيما يلى يمكن تلخيص أهم العوامل التى أدت إلى اضطرابها النفسى وعدم استقرارها :

١ – عصبية الأم الشديدة وقسوتها فى معاملة الطفلة دون مراعاة لأى اعتبار آخر .

٢ – عدم إتاحة الفرصة للطفلة للاعتماد على نفسها حتى فى البسيط من أمورها الخاصة ، وبهذا أصبحت الفتاة غير قادرة على الاستقلال فى خدمة نفسها ، شاعرة بالعجز .

٣ – المعاملة المنزلية المتغيرة من جهة الوالدين ، وعدم تقديرهما لحاجتها النفسية . . فالوالدة شديدة قاسية ، كثيرة النقد للفتاة ، والوالد

ضعيف لين لا يهتم بشكوى الوالدة منها .

٤ – شعور الفتاة بالشقاء فى المنزل والمدرسة أدى بها إلى هروبها أحياناً من المدرسة ، وكراهيتها للدراسة مما انتهى إلى تأخرها الدراسى .

٥ – حرمان الطفلة من ممارسة هوايتها من رسم وتأليف قصص . . كان من أسباب إحساسها بالقلق وعدم الاستقرار .

٦ – قلق الطفلة على نفسها وشعورها بالنقص لاهتمامهم بها من الناحية الصحية ، وقد أدى ذلك إلى ظهور العصبية الزائدة وعدم الاستقرار النفسى . .

كل هذه العوامل خلقت للطفلة جواً تشعر فيه بالتعاسة والشقاء .

إن الطفل فى حاجة إلى الحرية واللعب والحركة . وإلى السلطة الحازمة التى لا تعرف التردد أو الضعف . كما أنه فى حاجة إلى العطف والحب ، وأخيراً فإنه محتاج إلى النجاح والتقدير لمهاراته وكفاياته بأنواعها المتعددة .

وقد استمر علاجى لهذه الفتاة بتوجيه الوالدين إلى كيفية معاملة الطفلة حتى تهدأ وتستقر نفسيتها وتعاود دراستها بصورة مرضية ، وكذلك العمل على خلق جو أسرى هادئ يحيط بالطفلة فى المنزل ، تكون فيه المعاملة ثابتة يتوافر فيها العطف والحزم والعدالة والحرية وحسن التوجيه . ويضاف إلى كل ذلك أنى عالجت الناحية الصحية فزال إحساس الطفلة بالنقص الذى كانت تشعر به .

وأخيراً شفيت الفتاة من الأمراض السابقة ، وعادت إلى استقرارها النفسى ، وانتظمت فى دراستها حتى أنها أصبحت من المتفوقات فى الدراسة وأصبح الوالدان سعيدين لاطمئنانهما على مستقبل ابنتهما .

فعلى كل أم ، لكى تحمى طفلها من الاضطراب النفسى والسلوك المنحرف والتأخر الدراسى أن تمنحه الحب الواعى المستنير . . هذا النوع من الحب الذى يدرك ما يجول بفكر الطفل وما يصطدم فى شعوره وما يحرك سلوكه . . ذلك الحب الذى يعرف حاجات الطفولة فيلبيها ويدرك ما لدى الطفل من قدرات وإمكانيات فيتعهدها بالرعاية ويتيح لها التفتح فى جو ملائم يسوده الاستقرار والهدوء . .

تعثر طفل موهوب

جاءت إلى عيادتى امرأة فى الخامسة والثلاثين من العمر أنيقة على درجة متوسطة من الجمال ، وجلست أمامى وكان يبدو عليها الاكتئاب والقلق والمعاناة ، مضطربة ، وبادرتنى بقولها : « جئت إليك يا دكتورة كى تساعدينى فى علاج ابنى الذى يلغ السابعة من العمر وهو غير متجاوب فى دراسته ، يهرب من المدرسة . عنيد ، غير مطيع ، يميل إلى المشاكسة وإيذاء الآخرين ، لا يستمع إلى أى توجيه . لقد ضقت به ذرعاً ، حتى إن والده يقوم بضربه أحياناً ضرباً مبرحاً ولكن دون جدوى » .

فقلت لها : « أرجو أن تذكرى لى تاريخ حياة طفلك منذ الحمل به حتى وقتنا هذا ، مع ذكر الأحداث والظروف التى مر بها خلال هذه الفترة بالتفصيل » .

فقالت : « إنه الطفل الثانى فى الترتيب بالنسبة لإخوته ، وقد سعدنا

لقدومه إلى أبعد حد حيث إننا كنا مشوقين إلى ولادة ابن لنا ، لأن الطفل الأول كان بنتاً . كانت صحتى الجسمية والنفسية أثناء الحمل جيدة ، وولادته سهلة غير متعثرة ، وكانت طفولته طبيعية من ناحية النمو فى المشى والكلام . . إلخ . حتى إنه فى بعض الأحيان كان يبدو عليه ذكاء أكبر من سنه ، إلا أن حالته الصحية كانت من الدقة بحيث تحتاج إلى ملاحظة دائمة وعناية خاصة . فكان يلقى هذه العناية أثناء السنوات الأولى التى قضاها فى البيت مع أخته التى تكبره بعام واحد .

ولما بلغ الرابعة من العمر ألحقناه بالفرقة الأولى بقسم الروضة فأظهر تقدماً مطرداً ، وفى نهاية العام نقل إلى الفرقة الثانية ، وكان خلال هذه الفترة يظهر شغفاً قوياً بالمدرسة ، وإقبالاً كبيراً مما أسعدنا ذلك كثيراً وشكرنا الله لتوفيقنا فى هذه الناحية ، وأدخل على أنفسنا الكثير من الاطمئنان – ولكن إعجابنا بذكائه فى هذه السنة جعلنا نظن أنه يفيد ابننا إذا استغل ذكاءه فى توفير السنة الثانية من سنى الروضة وإعداده إلى السنة الأولى الابتدائية مباشرة . فجاءت نتيجة الامتحان على ما نرغب ونشتهى .

ودخل الطفل الفرقة الأولى من المدرسة الابتدائية . فكنا نتحدث فخورين بتفوق ابننا ، وكنا نشعر بالفخر حين نسمع الناس يذكرون ابننا معجبين بنشاطه وذكائه . ولكن ماذا كان الثمن ؟ .

لم يمض شهر واحد من العام الدراسى حتى مرض الطفل مما أدى إلى ملازمته الفراش ، ثم مضى شهر يلى الآخر والطفل ينتقل من ضعف إلى ضعف ، حتى ضاع عليه العام الدراسى الذى أردنا أن نقتصده من حساب

سنى الدراسة . وليس هذا كل شيء . تأخرت حالة الطفل الصحية وكثر تغيبه حتى أصبح من المتخلفين فى فرقته . وبذا حرم متعة التفوق على أقرانه وبدأ يشعر بالملل من الذهاب إلى المدرسة ، وكان فيما مضى ممتلئاً باللهفة عليها ، وأخذ الشعور بالملل يزداد حتى بلغ فى نهاية الأمر إلى التمارض المتكرر ، والتماس شتى الحيل هرباً من المدرسة التى سئمتها نفسه بعد أن ذاق بها مرارة التخلف . هذه قصة ابنى من البداية وأرجو أن تساعدينى فى علاجه » .

وبعد أن سردت الأم هذه القصة ، بدأت أوضح لها الأخطاء التربوية التى ارتكبها الوالدان فى حق طفلهما والتى تتلخص فيما يأتى :

١ – إن إعجاب الوالدين بذكاء طفلهما (ما هو إلا إعجاب بذاتيهما) فى هذه السنة كان إعجاباً ساذجاً ، فلم يتركاه ينعم بالهناءة التى كان يلقاها بالروضة ، ولم يتركا شعوره بالتفوق على أقرانه ينمى فى نفسه وبنيته حوافز الرغبة فى الدرس والثقة بالنفس والاستمتاع بما يخلقه النجاح من لذة فى العمل والجد . لذلك حرماه من ذلك كله بنقله إلى السنة الأولى الابتدائية وتوفير السنة الثانية فى الروضة .

٢ – لم يدرك الوالدان أن طفلهما – أولا وقبل كل شيء – طفل من حقه أن يتمتع بطفولته ، وأن ينطلق فى رحابها مرحاً لاعباً ، وأنه فوق هذا عليل ، من حق صحته عليه أن تلقى المزيد من الملاحظة والعناية ، ولكن الوالدين أغفلا هذه الحقيقة . فزاد ضغط المدرسة عليه ولم تتحمل صحته ، فأدى ذلك إلى إصابته بالمرض ، فتأخرت حالته الصحية وكثر تغيبه حتى عدّ من المتخلفين فى فرقته ، وبذا حرم متعة التفوق على أقرانه ، وكان

سينعم بهذا الشعور مدى حياته لو ترك وشأنه ليسير فى الطريق الطبيعى دون ضغط أو إرهاق .

٣ – جهل الوالدين ببعض المبادئ التربوية اللازمة لكل أب وأم – كى يستطيعا تقدير مصلحة ابنهما تقديراً صحيحاً وكى يسعدا ويفخرا بأنه سليم البنية متفوق على أقرانه – أدى هذا إلى الإساءة البالغة التى أصابت الطفل فى جسمه وعقله ونفسه وأخلاقه وفى سعادته وحياته حاضراً ومستقبلا بلا شك . فأساءا تقدير حدود الطاقة لابنهما فى غير إرهاق ، وأهملا ناحية هامة كان يمكن أن يستغلاها لنفع ابنهما دون أن يحملاه ما لا يستطيع ، تلك هى تكوين شخصيته بالمناقشات الودية السهلة والمطالعات البسيطة المفيدة ، ومصاحبته إلى النزهة أو فى أى ناحية من نواحى التجديد والترفيه لتنمية الثقة بنفسه وزيادة قدرته على مواجهة الحياة غالباً لا مغلوباً .

التحليل النفسى للحالة :

حالة الطفل التى سبق ذكرها والأخطاء التربوية التى تعرض لها والاضطراب فى السلوك والتأخر الدراسى وعدم قدرته على التكيف فى مجتمعه المدرسى والمنزلى ، يعتبر مثلا واضحا للصراعات الداخلية التى كان يعانى منها نتيجة الضغوط الملقاة عليه كى يستمر بالدراسة وعدم قدرته على تحمل هذه الضغوط نتيجة لسوء صحته ، وبذلك ساءت صحته من الناحية الجسمية والنفسية فزاد تخلفه على أقرانه وفقد الثقة بنفسه وبدأ شعوره بالنقص الذى ظهر فى اضطراب سلوكه وعناده

وعدم طاعته وهروبه من المدرسة وإساءته إلى الآخرين بالعراك معهم (الأمراض التي من أجلها طلب العلاج) . وفى الحقيقة فإن هذه الأعراض ما هى إلا تعويض للنقص والقصور اللذين يشعر بهما الطفل ، والضغط النفسى الداخلى لعدم قدرته الصحية والنفسية على مسايرة ركب الدراسة وتوافقه مع مجتمعه المنزلى والمدرسى ، مضافاً إلى ذلك عدم فهم والديه لحاجاته النفسية فى هذه المرحلة من العمر ، ومبالغتهما فى عقابه والإساءة إليه بسبب ما يرتكبه من أخطاء وانحراف فى السلوك وعدم تعاونه مع الآخرين .

واستمر علاج هذا الطفل حوالى ثلاثة شهور – ولحسن الحظ كان ذلك فى شهور الإجازة الصيفية – وكان العلاج يشمل : جلسات نفسية للطفل ، وتوجيهاً وإرشاداً إلى الوالدين وتوعيتهم إلى كيفية معاملة الطفل فى الظروف المختلفة وتنشئته التنشئة النفسية السليمة كى يستطيع أن يستكمل طريق الحياة الطويل الشاق بشخصية متزنة قادرة على مواجهة الحياة بكل صعوباتها .

وفعلا تم الشفاء للطفل من الناحيتين الجسمية والنفسية وبدأ بداية طيبة فى العام الدراسى التالى . وأخذ يسير فى دراسته بخطى متزنة واثقة ، وتوقف عن السلوك المنحرف فى معاملة المحيطين به فى المنزل والمدرسة . وأدرك الوالدان أخطاءهما فى تنشئته واطمأنا إلى مستقبل ابنهما لتجاوبهما لتعليمات العلاج .

عادت إليه السعادة بعد الحرمان

الحب هو عماد الحياة الإنسانية . ومن الضرورى أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية حياته . فالحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ويدفع المحروم إلى الانحراف فى السلوك أو إلى ارتكاب أبشع الجرائم .

فالحب يبدو فى عطف الأم على طفلها وحرصها على البقاء بجانبه دائماً حتى لا يفتقدها عندما يحتاج إليها ، وهو إذا جاع فعلى أمه أن تسرع بإطعامه . وإذا صرخ بالليل منادياً فعليها أن تأخذه فوراً بين أحضانها تهدهده وتدلله حتى تعيد إليه هدوء نفسه واطمئنانها . وإذا كان يخاف من الظلام فمن الضرورى أن تضاء غرفته بنور بسيط يبدد الظلام من حوله .

وفيما يلى قصة صبى حرم من هذا الحب فانحرف سلوكه واضطربت نفسيته وجىء به إلىّ لعلاجه :

كان سمير فى الثالثة عشرة من العمر . نموه الجسمى كان يسبق عمره وأصبح جسمه دائماً أكبر من سنه بكثير مما كان يسبب له أشد الإحراج بين زملائه الصغار ، كل شىء فيه مرتب مهندم ونظيف . أخذت أتأمله . . لا شىء فى تصرفاته يدل على حالة نفسية شاذة ، عيناه لامعتان . . شفتاه ثابتتان . . حديثه متزن لا تناقض فيه . . وبرغم ذلك فالمظهر الخارجى لا يدل على شىء ، إن كثيراً من الحالات تتميز بمظهر خارجى ثابت

لا يدل على الاهتزاز الداخلى الذى يعانيه المريض . . ثم إن هذا المظهر الخارجى الثابت قد يكون مجرد فترات استراحة بين أزمات نفسية عنيفة . .

وبدراسة حالته تبين أن سمير الابن الوحيد لزوجين يختلفان تمام الاختلاف فى شخصيتيهما ونظرتيهما إلى الحياة . كان الوالد رجل أعمال له اتصالات واسعة بحكم وظيفته التى كانت تستدعيه السفر بعيداً عن بيته لفترات طويلة يعود بعدها إلى بيته ، ومع ذلك فكان لا يشعر بالراحة والاستقرار فيه .

كانت الوالدة مدرسة مسيطرة جبارة ، فجعت بعد زواجها منه فى ضعفه وزهده فى الطموح وتفضيله هذه الوظيفة التى تبعده عن أسرته معظم الوقت . كانت تستبد به وتمحو شخصيته ، الأمر الذى دفع به إلى تمسكه بهذه الوظيفة التى تبعده عن البيت ، وتريحه من سيطرة زوجته معظم الوقت .

ولد سمير فى هذا البيت غير المستقر . . كانت أمه شديدة التعلق به ، أى بطريقتها الجبارة المسيطرة ، فاعتيادها التحكم فى تلاميذها وإجبارهم على النظام ، دفعها إلى السلوك ذاته مع ابنها الصغير ، فكانت فى صغره تتركه يبكى الساعات فى فراشه معتقدة أنها ما دامت قد أطعمته وغيرت ثيابه فعليه أن يلزم الهدوء فى سريره ولا يصح أن تحمله أو تدلله بلا داع . . وعندما يحين وقت تبوله وتبرزه تضعه على الوعاء الخاص بذلك ، فإن أخرج ما فى جوفه كان بها وإذا لم يخرجه تتركه فى مكانه مهما طال الوقت ، فعليه أن يقبل ذلك .

ولفرط ارتباطها بعملها حرمته نعمة الرضاعة من ثديها ، فحرم بالتبعية

من حقوقه الطبيعية فى الاكتفاء العاطفى الذى يشبعه نفسياً ويمنحه الشعور بالاطمئنان الذى يجده الطفل وهو راقد فى أحضان أمه . .

ولشدة لهفتها عليه منعته من الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ولكى تعوضه عن هذا النقص غمرته باللعب المختلفة التى يعالج بها وحدته . .

كان تقرير المدرسة عنه بأن ذكاءه فوق المعدل الطبيعى ، كان جميع المدرسين يشهدون له بالتفوق وحسن السلوك ، حتى إنهم كانوا يتنبأون له لتفوقه بمستقبل مضىء ومنح وبعثات دراسية فيما بعد . . كان دائماً الأول بين أقرانه . وكان يمنح الأوسمة والمكافآت تشجيعاً له لاستمراره فى هذا التطور . كان من المحتمل أن يبذل مجهوداً شاقاً فى الدراسة لأنه كان يعانى من مشاكل أسرية فى المنزل . .

وبمرور الزمن ، اكتشفت الأم أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى وأن له منزلا آخر فى إحدى ضواحى المدينة يتردد عليه مع رفيقته بين آن وآخر .

وعلى الرغم من أنه فى مثل هذه الظروف ينبغى على الفرد التحقق من صحة هذه الأنباء قبل أن يلجأ إلى أى تصرف ، ومع ذلك فقد زادت من سوء معاملتها لزوجها والحقد عليه ، وكانت تلجأ إلى إثارة المشاكل والخلافات والعراك فى الأسرة . وكانت دائماً تحاول أن تشرك ابنها سمير فى خلافاتهما التى لا تنتهى . . وكانت تغرس فى نفس ابنها الكراهية والحقد الشديدين نحو والده ، واتهمته بأنه إنسان شرس لا يحب أسرته ولا زوجته ولا ابنه ، وأنه يقضى معظم وقته فى الخارج مع نساء مستهترات ولا يهتم بحياته الزوجية . .

وأخيراً تركت المنزل وذهبت إلى بيت والدها ومعها ابنها سمير .

كان والداها المسنان يعيشان فى منزل صغير لا يتسع لإيواء فردين آخرين ، يضاف إلى ذلك عدم رغبتهما فى تحمل عبء ، وشقاوة وضوضاء صبى صغير ، حتى إنهما أنفسهما لم يرغبا فى إنجاب ولد لعدم استعدادهما لتحمل مضايقات صبى صغير ، ومع ذلك فلم تحاول الأم تعديل الأمور ووضعها فى صورة محببة إليه ، فكان يعانى من سوء معاملة جده ، فكان يضيق به ويقسو فى معاملته ، فكان يضربه ويطرده من البيت بالليل لأبسط هفوة لا تستحق العقاب . فلا يجد المسكين مكاناً لمبيته سوى أرصفة الشوارع أو مداخل العمارات أو مقاعد الحدائق العامة . . وكانت الأم ترى هذا الجحيم المستعر الذى يحترق فيه ابنها ولا تمد يدها لمعونته خوفاً من أن تغضب والدها فيطردها هى الأخرى .

بدأت المتاعب تظهر بوضوح على سمير فى المدرسة فبدأ يتأخر فى دراسته وينحرف سلوكه فكان يميل إلى إيذاء الغير وإهمال واجباته المدرسية وهروبه من المدرسة وتشرده فى الشوارع ، ويتبع ذلك كثرة الشكاوى من الجيران لما يسببه من إيذاء وتحطيم ممتلكات الآخرين .

أصبح سمير فى حالة نفسية مضطربة ، فظهر ذلك فى سلوكه المنحرف الذى أخذ يزداد إلى أن أصبح فى حالة شرسة مما كان سببا فى استدعاء المدرسة لوالده الذى كان يرغب فى ضم ابنه إليه ، ولكن الأم قاومت هذه الرغبة . فإن أنانيتها وتفكيرها المركز حول نفسها من أسباب تجاهلها ابنها وعدم إحاطته بحبها ورعايته منذ طفولته ، فرفضت تسليمه لوالده اعتقاداً منها بأنه كان له التأثير السيئ عليه منذ ولادته ، الأمر الذى

أدى إلى النتيجة السيئة الحالية . . فتركها الوالد وعاد إلى حيث جاء لأنه لم يرد أن يدخل نفسه فى مشاكل أخرى . . ولم يهتم بأمر ابنه وتركه إلى غير رجعة . .

كان سمير شديد الحقد والكراهية لوالده لما غرسته أمه فى نفسه منذ طفولته . . استمر انحرافه الذى ظهر فى ظاهرتين من الأعراض . . السرقة والاعتداء . وفى مرة كان اعتداؤه بصورة غير محتملة ، فلجأت أمه إلى تسليمه إحدى مؤسسات الأحداث لأنه أصبح فى حالة شرسة : وهى غير قادرة على التحكم فى سلوكه ولا تستطيع تحمل استمرار بقائه معها لما يسببه لها ولوالديها من متاعب غير محتملة . .

وكان من ضمن العوامل التى زادت فى هذا السلوك غير الطبيعى ، أن الصبى نفسه قد اقتنع من كثرة ما كان يطرأ على سمعه من تعليقات الجدة بأن الصبى يجرى فى عروقه « الدم الردىء » الذى انتقل إليه من والده ، فكانت النتيجة الحتمية لهذا الاقتناع ظهور هذا الانحراف السلوكى .

وأخيراً حجز سمير بمؤسسة من مؤسسات الأحداث لفترة معينة ، حيث ازدادت الحالة سوءاً ، فكان لهذه الفترة أثرها النفسى والتربوى عليه حيث عانى فيها أقسى التجارب وأمرها فى الحياة ، إذ كانت المشرفات هناك ينكلن به لأبسط هفوة تصدر منه ولا يعطينه من الطعام ما يكفى لسد رمقه ويتركنه ينام بالليل والظلام الدامس يخيفه وهو وحده ، فيصرخ ويزعج المقيمين معه فى المؤسسة . وبدأ يبلل فراشه ليلا ، ويقوم مذعوراً من فزع ليلى رهيب وكان إذا بل الفراش يعاقبنه بالضرب المبرح .

ولقد أتت هذه المعاملة القاسية بعكس النتيجة ، إذ ظل يتبول على

نفسه إلى أن اشتد عوده وكبر . . وكانت المشرفة هناك حينئذ تأمره بتغطية رأسه بالملاية المبللة بالبول وتطوف به على أقرانه تحرضهم على إهانته والتنكيل به . . فكان يعانى ويحترق بلهيب العذاب والخزى والحرمان .

كانت نوبات الفزع الليلى التى كانت تنتابه ليلا نتيجة وجوده فى آتون العذاب ، فيظل يصرخ ويبكى حتى يصل صوته إلى آذان المشرفات ، فيسرعن إليه وينزلن به العقاب اللازم جزاء عصيانه .

وأخيراً بدت بارقة الأمل فى أفق سمير عندما تزوجت أمه بأحد المدرسين التربويين ، وهو زميل لها فى عملها . ورضى هذا الزوج أن يعيش الابن معهما ، وخرج الصبى من المؤسسة ليستنشق نسيم الحرية فى أول مرة فى حياته ، ولحسن حظه كان هذا الزوج طيب الخلق عطوفاً على سمير ، شعر بأن هذا الانحراف السلوكى الذى يظهر فى تصرفاته فى حاجة إلى المشورة الطبية النفسية وبصفة عاجلة ، فأقنع والدته بذلك وجاءا به إلىّ لعلاجه . .

استمر علاجه عدة شهور أخذت أنقب فى لفائف العقل الباطن عما يختزنه من الدوافع إلى هذا السلوك المنحرف . ولقيت مقاومة شديدة فى فتح عقله الباطن . . ولكن أمكننى التحايل على عناده بأساليبى العلمية . أحادثه وأناقشه وأستدرجه إلى الإفضاء بدخيلة نفسه بقصد الوصول إلى خفايا عقله الباطن ، وما يكمن بين طيات اللاوعى من دوافع أدت إلى انقلابه من صبى هادئ ذكى متفوق فى دراسته إلى صبى منحرف شرس فاشل فى دراسته متشرد يؤذى ويعتدى ويسرق . .

وبعد فترة وجيزة من العلاج بالأدوية المهدئة والجلسات النفسية

أمكنني أن أكسب ثقته ، وأمكنني أن أصل إلى قرار العقدة التي ذهبت برشده ، واطفو بها إلى السطح حيث العقل الواعي القادر على تصفية العقد ورد العقل إلى توازنه الطبيعي . فحين وجد سمير المناخ الأسرى الدافئ الذى حرم منه منذ طفولته بدأ يستعيد قدرته ونبوغه ومحاولاته لتحقيق آماله ، وعلى الرغم من أن هذه المحاولات كانت شاقة ومجهدة لأى فرد فى مكانه يتعرض لمثل ظروفه ، فقد تمكن تدريجياً أن يعيد إحساسه بوجوده بتدعيم حياته مرة ثانية بالقيم اللازمة لأى فرد ، لكى يحيا حياة كريمة منتجة يحب ويحَب ، وعادت إليه ثقته بنفسه وزال عنه الإحساس بالنقص الذى كان قد غرس فى نفسه بسبب تحطيم حياته الأسرية .

ولقد أمكنني شفاء سمير ، فاستطاع أن يتم دراسته الثانوية بنجاح ثم دخل الجامعة وانتظم فى صفوفها موفقاً وكان ذلك بفضل أمرين هامين :

أولهما – بقايا الخير الكامنة فى نفسه ، والأمر الثانى أسلوبى فى علاجه ، فلم أصدر عليه حكمى بالإدانة ولم أشعره بأنه منحرف ، بل أقنعته أنه مريض وسوف يشفى بالعلاج تماماً .

فبالحب الصحيح والتقدير والحزم والصراحة استطاع العلاج النفسى أن يكشف للصبي عن أصول علته ، ويرشده إلى طريق السلامة .

وكان يصاحب العلاج النفسى توجيه لوالدته ولزوجها عن كيفية معاملته والأسلوب الصحيح فى تنشئته تنشئة نفسية صحيحة . وقد استجاب للتوجيه ، ولا سيما حين بدأت بوادر الشفاء تظهر عليه .

التحليل النفسى للحالة :

الحرمان من حب المحيطين به :

ليس هناك أقسى على النفس وأشد مرارة على إحساس الطفل من أن يكون مكروهاً وغير مرغوب فيه من أى شخص ممن يحيطون به . . فإن أهم عنصر لبناء الشخصية السوية أن يحس الإنسان خصوصاً فى بداية حياته بأنه مرغوب فيه خصوصاً من أقرب الأقربين إليه . . فهل أعطى سمير فرصة الإحساس بذلك ؟ الجواب طبعاً بالنفى . . فأبوه لم يكن يريده منذ مولده بدليل قسوته على زوجته وتخليه نهائياً عنه ، وكذلك تخلت أمه عنه أيضاً ووضعته فى المؤسسة راضية . . بعد أن ذاق العذاب من معاملة جده وضربه ، وأحياناً تعذيبه وأحياناً طرده بالليل إلى ظلام الشارع حيث لا فراش ولا أنيس ولا مأوى . .

كأن الظروف تكاتفت لتقنع سمير فى جميع مراحل حياته بأنه مخلوق تعس لا يريده أحد ، والجميع لا يريدونه ويتمنون القضاء عليه دون ذنب جناه . . هذه الأوهام البشعة والمشاعر الحزينة التى أوجدتها ظروفه المثقلة بالعذاب والحرمان ، هى التى دفعته إلى إيذاء صبية آخرين أبرياء لم يسئ أحدهم إليه مثلما لم يسئ هو إلى أحد . . ومع ذلك فقد تجرع من العذاب ألواناً مختلفة . . فالطفل كى يتحول إلى إنسان كبير سليم النفس والأخلاق يحتاج إلى أكثر ما يحتاج إلى الشعور برغبة الآخرين فيه ، لا بالكلام المفتعل ، بل بالعطف والحنان والرفق والتسامح بالابتسامة الحلوة والقبلة الرقيقة والضمة الحانية والاستعداد لحبه بكل أخطائه ومساوئه

أهمية الاختلاط بالآخرين :

إن الطفل يحتاج فى مرحلة نموه المبكرة إلى الاختلاط بأبناء جنسه من الجنسين ، فعن طريق تعامله معهم يتعلم التعامل مع الحياة ويتضح إدراكه فى ظل الروابط الاجتماعية . . وهو ما لم يحدث لسمير الذى أبعدته أمه عن الاختلاط بالأطفال الآخرين ، فسلبته القدرة على التعامل الاجتماعى ، وسلبته موهبة التعبير عما يجول بخاطره ، وتركته فى معركة ضارية مع نفسه القاصرة التى تجسم له عجزه وتفاهته ، وتغريه بمحاولة القيام بعمل – أى عمل – يثبت به رجولته ، ويسترد به احترامه لنفسه ، ذلك الاحترام الذى دمرته أمه بسيطرتها عليه واحتقارها له ، وأضاع عليه فرصة الفوز بهذا الاحترام بتخلى أبيه عنه ، وعدم محاولة الاهتمام به ورعايته وإشعاره بحبه .

أهمية التنشئة النفسية الصالحة :

إن الإنسان لكى ينشأ تنشئة تربوية صالحة تساعده على الاستمتاع بحياة مستقبلة هانئة يحتاج بالضرورة أن يعيش طفولته الأولى بكل أبعادها دون أى قيد خارجى يشكل ضغوطاً نفسية أو جسمانية عليه . . ولكى يعيش طفولته بكل أبعادها ينبغى أن يترك – خصوصاً خلال العامين الأولين من عمره – على سجيته يمارس الحريات الطبيعية التى تقتضيها طبيعة هذه الفترة من عمره ، ومعنى ذلك أن يأكل عندما يجوع ويتبول حيثما يشاء .

فمحاولة منع الطعام عنه وحرمانه من حرية التبول على نفسه بفرض نظام صارم لا يستطيع الطفل أن يدرك معناه ولا تقوى طبيعته على اتباعه –

يؤدى إلى حرمانه من حقه فى التمتع بطفولته التى هى غذاء روحى يبنى الأساس المقوى لشخصه ، ويدفعه بفعل الضغط عندما يكبر ، إلى العودة إلى الطفولة فى أثناء نومه ؛ وهى حالة اللاوعى فى حياة الإنسان لممارسة الحريات الطبيعية التى حرم منها .

لذلك ينبغى على الأم الواعية العاقلة أن تتجنب تنظيم تبول الطفل خلال السنتين الأوليين من حياته بصورة صارمة يتخللها القسوة والعقاب والتهديد والوعيد فى حالة الفشل . . بل تبدأ فى تنظيمه بالتدريج مع التفهم لحاجاته النفسية ، وذلك لأن تبول الطفل على نفسه بعد سن الطفولة بمثابة الاحتجاج الشديد على الضغط الظالم الذى تعرض له فى بداية حياته فيحرمه حقه من الاستمتاع بطفولته .

وهذا ما حدث لسمير ، فقد حرمته أمه بقسوتها البالغة أن يعيش الفترة الأولى من حياته على سجيه وبذلك سلبته طفولته وسلبته معها فرصه فى أن يبنى شخصية سليمة . . لقد أضافت إلى هذه الجريمة جريمة أخرى وهى إلحاقه بالمؤسسة حيث لاقى من قسوة المشرفات بها والتنكيل به باستمراره فى التبول بعد أن شب عن الطوق وكبر ، ودفعته بذلك إلى احتقار نفسه ، بل ويرى نفسه فى صورة إنسان منحرف غير طبيعى .

الأخطاء التربوية :

١ – عدم توافق الوالدين واستمرار الخلاف بينهما أدى إلى اضطراب الحياة الأسرية التى تعتبر البيئة التى ينشأ بها الطفل وينمو ، فضاع الانسجام الأسرى الذى يعيش فيه سمير .

٢ – حقد الأم على زوجها وبث روح الكراهية فى الطفل نحو أبيه كان ذلك من الأسباب الهامة فى انحراف سلوك سمير لكراهيته لوالده ، وبالتالى كراهيته للمجتمع وأفراده وارتكابه حوادث الإيذاء للآخرين .

٣ – استمرار بُعد الأب عن المنزل هرباً من المشاكل والخلافات الأسرية الأمر الذى أدى إلى اتساع فجوة الكراهية بين الأب والابن وإحساس الطفل بعدم الانتماء لوالد يحنو عليه ويحبه ويرعاه .

٤ – عدم تفهم الأم بحاجات ابنها النفسية فى كل مرحلة من مراحل عمره أدى إلى عصيان الطفل وعدم طاعته لها ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى رغبتها فى التخلص منه بإيداعه فى إحدى المؤسسات الخاصة بالأطفال حيث لاقى المرارة والعذاب فى المعاملة فأصبح يكره الناس والمجتمع ونفسه .

٥ – أنانية الأم واهتمامها بأمور نفسها وعدم إحساسها بحاجة الطفل إلى حبها ورعايتها وحنانها هو الغذاء الأساسى الذى تنمو عليه شخصيته وحياته مستقبلا . . فحرم من أهم الأسس الهامة لبناء شخصيته .

٦ – قسوة معاملة الجميع له وكأنما تكاتف الجميع ضده ، وعدم تقديرهم لمشاعره وحاجته إلى الحب والحنان والفهم . . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إحساسه بأنه غير مرغوب فيه . . فحقد على الناس وكره نفسه .

٧ – سوء معاملة المشرفات له فى المؤسسة والتنكيل به وعقابه بأشد أنواع العقاب فى حالة وقوعه فى أى نوع من الخطأ زاد من كراهيته لأمه ولوالده وللمجتمع . . ورغبته فى الانتقام بارتكابه حوادث الانحراف بصورها المختلفة .

مما سبق نرى أن البيت للطفل بمثابة الأرض للبذرة . فالأرض الطيبة تنمو فيها البذرة نمواً طبيعياً سليماً وتنتشر انتشاراً يعطى أكبر إنتاج تستطيعه هذه البذرة – كذلك البيت الهانئ هو المكان الذى ينمو فيه الطفل نمواً طبيعياً سليماً من جميع الوجوه . جسمياً وعقلياً واجتماعياً ، وهو أيضاً المكان الذى تتفتح فيه الاستعدادات الكامنة لدى الطفل – فتكشف له قدراته ، ويطمئن إلى نفسه وإلى من حوله – وبعبارة موجزة البيت الهانئ هو البيت الذى يكسب الطفل ما يؤهله لمواجهة الحياة خارج البيت – وهو أيضاً المدرسة الأولى للمرانة الاجتماعية . فإذا خطا الطفل الخطوة التالية وخرج من البيت ينضم إلى المدرسة ويصبح عضواً فى أسرتها ، أقبل عليها مرحباً ، لأن الجو العائلى فى البيت مهد له السبيل لكى يقيم علاقاته بالغير على أساس من الطمأنينة والتعاون .

وكما أن الأرض الضعيفة تسىء إلى البذرة ، كذلك البيت المضطرب لا يصلح بأى حال لتنشئة الإنسان الصغير ، مهما توفر المال والجاه وغير ذلك من وسائل التعويض المادى . البيت المضطرب لا يخرج منه إلا إنسان مضطرب التفكير ، معتل الإحساس ، تعوزه سلامة النظر إلى نفسه وإلى الغير ، ولن يكون هذا الفرد سعيداً ولا مواطناً نافعاً فقط ، بل يؤدى عدم الانسجام والتوافق الأسرى إلى إصابة الأطفال بالاضطرابات النفسية والانحرافات السلوكية التى تؤول فى النهاية إلى أسوأ المصير إذا لم تطلب المشورة الطبية النفسية للعلاج .

لذلك ينبغى أن نكون حريصين على أن نحيط الطفل دائماً بالجو العائلى الهانئ ، الذى يمد صاحبه بالطمأنينة والشعور بالدفء ، ويتيح له

حرية فردية ينظمها التفكير التعاونى والرغبة فى رعاية حقوق الغير – ينبغى أن يكون البيت المكان الذى تقوم فيه المعاملة على أساس من الزمالة والتقدير ، المكان الذى يجد أصحابه الصدرَ الكريم الذى يجمع بين العطف والحزم والقلب الكبير الذى فيه متسع للتسامح ، والعقل الراجح الذى يحسن التوجيه وأداء النصيحة . . بذلك يمكن خلق جيل ناضج متزن ناجح نسعد به نحن والوطن أيضاً .

كيف شفيت وفاء من التبول اللاإرادى

جاءتنى إلى العيادة امرأة فى حوالى الثلاثين من عمرها متوسطة الجمال ، يبدو عليها القلق والاضطراب ، تشكو من أن ابنتها وفاء (البالغة من العمر خمسة عشر عاماً) تتبول أثناء نومها فى كل ليلة ، وأن هذا الأمر يسبب قلقاً شديداً لها ولوالديها ولا سيما أن الفتاة هى الكبرى من طفليها . وقد حدث هذا عقب وفاة والدها وهى فى سن الرابعة أى بعد أن كانت قد قطعت مرحلة طويلة فى ضبط نفسها من التبول .

وبدراسة الحالة وجدت : أن الحالة الصحية للفتاة طيبة وخالية من جميع الأمراض الجسمية التى يحتمل الرجوع إليها ، وأن الأسرة كانت حالتها المالية فوق المتوسط ، وكان الوالد شاباً ناجحاً فى عمله ، وكان كل من الوالد والفتاة متعلقاً بالآخر تعلقاً شديداً ، فكان الوالد يأخذ وفاء معه فى نزهاته وفى الحفلات الكثيرة التى يدعى إليها ، وكانت وفاء لحيويتها

وجمال شكلها وذكائها ولباقتها موضع فخر والدها وموضع التفات أصدقائه ، وكان الوالد مرتبطاً بذهن الفتاة برباط جميل .

مات الوالد فجأة ، وشاهدت وفاء بعد ذلك ما يصحب الوفاة من أمور مزعجة غير عادية ، وبذلك حدث انقلاب مفاجئ فى حياة الطفلة ، ويلاحظ أن الأم كانت أقل تعلقاً بالابنة عن الوالد وكانت أكثر تعلقاً بابنها الصغير عنها . وبعد وفاة الوالد حصل هبوط شديد فى مستوى موارد الأسرة مما اضطرها إلى تغيير مستوى معيشتها تغيراً كبيراً . فقد أخذت الأم أولادها وسكنت مع أمها فى مسكنها الذى لم يكن يتسع أصلا إلا لها ولابنتها الأخرى وابنها الصغير ، ومع ذلك اتسع المنزل لوفاء وأمها وأخيها . وبعد مدة قصيرة تضايقت الجدة من الأطفال وميلهم إلى الحركة واللعب والصياح الأمر الذى لم تعتد عليه فى سنواتها الأخيرة . فكانت تلقى سخطها على مسمع من الأولاد ، ونظراً لأن وفاء أكثر نشاطاً وانطلاقاً من أخيها الصغير فقد كان يخصها من سخط جدتها النصيب الأكبر . وما إن وصلت الفتاة إلى سن السادسة حتى بدأ يحدث فى مجال حياتها تغيير جوهرى آخر هو أن أمها بدأت تفكر فى الزواج . وكانت وفاء غير راضية عن هذا الزواج ، وعدم رضائها قد يكون بعضه بوحى من حولها ، من جدة وخال وأقارب وبعضه قد يكون لأنها كانت تحس إحساساً غامضاً بعضه قد يكون راجعاً إلى أن نفسها تأبى أن يحل شخص غريب محل والدها ، وبعضه قد يكون راجعاً لما كانت تسمعه من أن زوج الأم يجعل جو المنزل عادة غير سائغ لأطفال من زوج آخر .

خلاصة الأمر أن الفتاة كانت كارهة لهذا المشروع وكارهة لأمها ،

وبالتالى أصبحت أمها تكرهها ، وكانت تحرض أخاها الصغير عليها لدرجة أنها كانت تطلب منه أن يبصق فى وجهها ويعيرها بالتبول ليلا إذا أغاظته . وبهذا أصبح مركز الطفلة فى مجال حياتها ينتقل بسرعة من سيئ إلى أسوأ ؛ فبعد أن فقدت الفتاة أباها لم تجد فى أمها أو جدتها عوضاً ، بل بالعكس وجدت منهما حقداً على حد تعبيرها وتقديرها . وأخذت هذه الخصومة تزداد . وبذلك ازدادت مخاوفها وازداد ضعف ثقتها بنفسها زيادة كبيرة . ولوحظ أن الفتاة فى أثناء نومها كانت تتقلب وتنام نوماً مضطرباً . وكانت عند تبولها فى أثناء نومها تصيح وتشتم موجهة شتائمها للنساء . وكان تبولها مصحوباً بشبه كابوس شديد ، وأحلامها كانت مصارعة الثعابين التى كانت تعضها وتغليها على أمرها (ولعل الثعابين كانت فى أحلامها لخطيب الأم) .

التحليل النفسى للحالة :

كانت الفتاة مرتبطة إرتباطاً شديداً بوالدها ، لا سيما وأن أمها كانت أكثر تعلقاً بالابن الصغير مما أدى إلى بعد الأم لا شعورياً عن حياة وفاء وتعويض ذلك بحب الوالد وحنانه عليها . فحين فوجئت بوفاة والدها صدمت وشعرت بفقد السند الذى كانت تشعر بالاطمئنان فى وجوده فأصابها الاضطراب والقلق والخوف وعدم الإحساس بالراحة النفسية ، فكانت نتيجة ذلك أن بدأ التبول اللاإرادى مباشرة بعد وفاة والدها .

ومن العوامل التى زادت فى سوء الحالة النفسية لوفاء هو :

١ – سوء معاملة أمها لها وحرمانها من كل رغباتها ، ولا سيما بعد سوء

الحالة المالية للأسرة عقب وفاة الوالد .

٢ – قسوة الجدة عليها بصورة شديدة حين ترتكب خطأ غير مقصود .

٣ – عدم إحساس الفتاة بكرامتها لسوء المعاملة والإهانة التى كانت تلاقيها من أخيها الصغير بتحريض من الأم .

٤ – رغبة الأم فى الزواج الأمر الذى أضاف إلى وفاء القلق النفسى والخوف من المجهول مما زاد فى كراهيتها لأمها وزيادة كراهية الأم لها بالتالى .

وبذلك فقدت الفتاة الإحساس بالأمن والثقة بالنفس وأصابها الشعور بالنقص والقلق والخوف وعدم الشعور بالطمأنينة ، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرتها على التحكم فى التبول ليلا وابتلال فراشها مرات متكررة كل ليلة ، وظهر الاضطراب فى أحلامها وفى الكابوس الذى كانت تصاب به فى أغلب الليالى .

حاولت الحصول بعد مقاومة كبيرة على تعاون الأم فى علاج ابنتها ، وذلك بانتظام ترددها للعلاج والمتابعة فى جلسات نفسية مع وفاء ومقابلات مع الأم بمفردها لتوجيهها إلى كيفية معاملة ابنتها حتى تشفى من الأعراض التى تسبب لجميع الذين يحيطون بها الكثير من الإزعاج ، وقد أوضحت لها ذلك بضرورة المساواة فى المعاملة بين الفتاة وأخيها وفى بذل الجهد لمساعدة ابنتها على الشفاء من التبول اللاإرادى . (وفى فهم حاجتها النفسية ، وإعادة كرامتها إليها وإغداق الحب والحنان اللذين حرمت منهما منذ وفاة والدها) .

كانت فرصة علاج وفاء وسيلة أيضاً لعلاج الأم التى كانت فى حالة نفسية غير مرضية للظروف التى كانت تعانى منها بعد وفاة زوجها وسوء

الحالة المالية وحالة ابنتها المضطربة غير الطبيعية وتبولها فى فراشها ليلا .

وبانتظام العلاج أمكننى أن أحقق الشفاء للفتاة وفى تحسين مركزها بتحسن مجال حياتها والوصول بها إلى شعورها بحب والدتها وتقديرها لها ، وبذلك توقف التبول اللاإرادى نهائياً . وعاد إليها الاتزان النفسى وتخلصت من الاضطراب السلوكى الذى كان من مصادر الشكوى والرغبة فى العلاج منها .

مما سبق نرى أن التبول اللاإرادى أحد أعراض الاضطراب الانفعالى الذى ينشأ نتيجة ظروف بيئية وأسرية غير ملائمة وسوء معاملة الطفل وعدم تقدير مشاعره وحرمانه من الحب الذى يعتبر الغذاء النفسى له . فإذا توفرت للطفل البيئة الهادئة البعيدة عن الاضطرابات والاختلافات شعر بالأمن والاستقرار ، وكذلك إغداق الحب والحنان عليه اللذين يعتبران من الأعمدة الأساسية الهامة لتكوين شخصية متزنة بعيدة عن القلق والكراهية تساعده على النضج الانفعالى فينشأ متعاوناً محباً لأسرته ولوطنه بعيداً عن أعراض الاضطراب النفسى .

الغيرة حولت مها الوديعة إلى فتاة مشاكسة

الغيرة أحد المشاعر الطبيعية الموجودة عند الإنسان كالحب والألم ، ويجب أن تقبلها الأسرة كحقيقة واقعة ولا تسمح فى نفس الوقت بنموها ، فالقليل من الغيرة يفيد الطفل ، فهى حافز يحثه على التفوق ، ولكن

الكثير منها يفسد الحياة ، ويصيب الشخصية بضرر بالغ ، وما السلوك العدوانى والأنانية والإرتباك والإنزواء إلا آثار الغيرة على سلوك بعض الأطفال ، ولا يخلو طفل من إظهار الغيرة بين الحين والحين ، وهذا لا يسبب إشكالاً إذا فهمنا الموقف وعالجناه علاجاً سليماً ، غير أن الغيرة قد تصبح عادة من عادات السلوك وتظهر بصورة مستمرة ، وهنا تصبح مشكلة ، ولا سيما حين يكون التعبير عنها بطرق متعددة من السلوك غير الطبيعى .

وفيما يلى يظهر تأثير الغيرة على سلوك مها الوديعة وكيف أصبحت مشاكسة :

حضر الوالدان إلى عيادتى ومعهما ابنتهما مها فى ميعاد سبق الاتفاق عليه للفحص الطبى النفسى على ابنتهما البالغة من العمر أحد عشر عاماً . . كانت الشكوى منها بأنها قلقة ، غير مستقرة ، مترددة ، خجولة ، غير قادرة على التفكير المستقل ، لا تستطيع التركيز فى أى عمل ، عنيدة غير مطيعة ، دائمة الشجار مع أختها الأصغر منها لدرجة الأذى فى بعض الأحيان والسب بألفاظ نابية — يضاف إلى هذا أنها متأخرة فى دراستها وغير متجاوبة مع مدرسيها الذين يبالغون فى عقابها كى يستقيم أمرها حسب اعتقادهم . وبدراسة الحالة تبين ما يلى :

كان الوالدان يعملان فى حقل التربية والتعليم ، وكانا يؤمنان بأنهما على وعى تام بأصول التربية النفسية لأطفالهما ، فهما يبذلان جهداً كبيراً فى تطبيقها فى معاملتهما لها . . وقد أظهرا الأسف الشديد لعدم قدرتهما على تنشئة « مها » على هذه الأسس السليمة وأصبح

سلوكها غير محتمل . .

كانت « مها » الطفلة الأولى لزوجين متحابين ، تزوجا بعد فترة تعارف طويلة ، إذ كانا يعملان معاً فى نفس المدرسة . واستمرت « مها » فى السنتين الأوليين الطفلة المدللة المحبوبة من والديها ، طلباتها مجابة ، يغدقان عليها الحب والحنان والعطف بدون حدود إلى أن جاءت الطفلة الثانية ، كانت أكثر جمالاً وألفة من « مها » فاستحوذت على قلب أمها ولم تترك بذلك القلب مكاناً ولو صغيراً للأخت الكبرى التى ظلت إلى وقت قريب قرة عين والديها ، وبعد أن كانت تجلس على عرش المحبة فى أسرتها ، أصبحت تجد نفسها محرومة من جميع ما كانت تستمتع به من قبل . . فقد شغل والداها عنها بالطفلة الحبيبة الجميلة ، كما شغلت مربيتها بالطفلة الصغيرة والسهر على خدمتها . .

وبمرور السنين زاد حقد « مها » على أختها ولا سيما أن الوالدين كانا دائماً يقارنان بين الابنتين ويقيمان موازنات بينهما ويذكران عيوب مها التى تسبب لها المتاعب . فكانت الأخت الصغرى تشعر بأنها قد بلغت الذروة وتشعر الكبرى بأنها قد هبطت إلى الحضيض ، وهكذا ثبطت همة مها وانكمشت فى نفسها وتراخت فى عملها . وتشجعت الابنة الصغرى وتقدمت فى عملها . وكلما زادت الموازنة بين الأختين زادت مها تألماً وزاد انحرافها وحقدها على أختها فيزداد الشجار والخلاف بينهما الذى كان يؤدى فى النهاية إلى مهاجمة مها وإنزال أشد العقاب بها . . وزادت الأخت الصغرى نشاطاً وتحمساً فى عملها وكراهية لأختها مها ، كانت مهـا تعمل فى الظاهر أحياناً وتستذكر دروسها ولكنها تشكو

من أنها لا تفهم ما تقرأ . . وأن فكرها مشتت دائماً عند محاولتها الاستذكار ، فيطير عقلها ويشرد منها انتباهها إلى درجة تصبح معها فى حالة نفسية سيئة ينعكس أثر ذلك على سلوكها المشاكس على أختها .

يضاف إلى ذلك أن الوالدين كانا لا يسمحان لها بالاشتراك مع بقية الأسرة فى الحديث أو الفسحة أو المجالسة أو غير ذلك كنوع من العقاب لسوء سلوكها وعدم تعاملها الطيب مع أختها .

استمرت مها فى هذا الجو غير الصحى نفسياً وكبتت معها متاعبها النفسية ، وتصورت فيما بعد بإدراكها الساذج أنها لم تعد مرغوباً فيها وأنهم جميعاً قد تحولوا إلى أعداء لها ، فأغراها ذلك الموقف بالتمرد على أمها وعصيان أوامرها ورغباتها على سبيل الانتقام لنفسها من الأم التى هجرتها وأغلقت أبواب قلبها عنها . .

أخذت الأم بفلواهرها ، واعتبرت ابنتها مخلوقة شريرة فقست فى معاملتها وحرمتها على سبيل التأديب لذائذ الطفولة المختلفة ، ولم تكن تتحرج عندما تتأزم المواقف بينها وبين الطفلة الصغيرة إلى تزويدها بالعقوبات البدنية التى كانت تضاعف من شعور الطفلة بالمهانة وتدفعها إلى الانتقام لكرامتها بمزيد من العصيان والحقد والشقاوة . . وكان ذلك يزيد إحساسها بالنقص لمقارنتها علانية بأختها الصغرى . .

كان سلوك « مها » فى المدرسة غير مرض أيضاً ، وزادت الشكوى من المدرسات لعدم تقدمها الدراسى وإثارة الشغب والفوضى بين التلميذات ، وكانت المدرسات يلجأن إلى عقابها وضربها حسب رغبة والديها كى يستقيم أمرها وفق اعتقادهم . . ومع ذلك فكانت حالة مها

النفسية تسوء وسلوكها أصبح منحرفاً وصارت تكره الذهاب إلى المدرسة فى معظم أيام الأسبوع إلا فى بعض الأيام ، فكانت حريصة على عدم التخلف فى أيام معينة من الأسبوع . . وبدراسة الموقف تبين أنها كانت تواظب على حضور حصص المواد الاجتماعية . لأن المدرسة القائمة بتدريسها تحب مها وتقدر ما تعانيه ، وكانت تحاول أن تعاملها معاملة تختلف كلية عن الآخرين . . فتحاول التفاهم معها وتوجيهها بطريقة فيها الحب والحنان . . فكانت تستجيب لها وتهدأ ولاسيما فى حصصها ، أما باقى الأيام ، وباقى الحصص فكانت تهرب من الحضور لأنها كانت تعامل معاملة سيئة من جميع المدرسين الآخرين . .

وأخيراً اضطر والداها إلى عرضها على للفحص الطبى النفسى لعلاجها حين ازداد انحرافها سلوكياً فى المدرسة وفى المنزل .

التحليل النفسى للحالة :

إذا تعمقنا فى دراسة مشكلة « مها » وجدنا أن كل ما حولها يفقدها الشعور بالأمن والاستقرار والثقة بالنفس ، وإحساسها الدائم بالنقص . . فهناك توبيخ الوالدين وهناك رسوبها ونجاح أختها الصغرى . . وهذا كله يترك فى الطفلة آثاراً يترتب عليها شعورها بعدم الجدارة ونقص الكفاءة وبعدم القدرة على العمل .

وكذلك عدم قدرتها على التركيز والفهم لتشتت فكرها وشرود ذهنها ، إذ أن عقلها فى هذه الحالة ينقسم إلى قوتين ، إحداهما الرغبة فى النجاح والتفوق . والأخرى شعور خفى يستولى عليها ويهبط بجهودها ويشعرها

بأن الإخفاق أمر لا بد منه . . والفتاة حين تتعرض للصراعات النفسية تصبح مخلوقة يائسة ترغب وتعجز عن تحقيق رغبتها ، وتفقد النية ولا تقوى على تحقيقها ، وهى لا تدرك سر القوى الخفية التى تعمل بداخلها والتى هى من غرس الجو المنزلى المحيط بها ، والتى تجعلها غير قادرة على العمل .

لم يستطع والداها فهم حاجاتها النفسية ، وكانا يبالغان فى عقابها بدنياً ونفسياً ، يضاف إلى ذلك مقارنتها بأختها علانية ، فأدى ذلك إلى كراهيتها لأختها واستمرار الشجار بينهما . فزادت الفجوة بينهما ، وساءت علاقتها بجميع أفراد الأسرة ، ففقدت الإحساس بالانتماء وأصبح المجتمع الذى يشمل فى نظرها المدرسة والمنزل حاقداً عليها . . فكانت تفضل الانطواء وعدم مشاركة زميلاتها ، بل كانت تحقد عليهن وتميل إلى الإيذاء والمشاكسة .

سلوك الطفل خارج الأسرة يعكس إحساسه داخلها . فإذا نال الطفل العطف والفهم والحب والحنان – وهى العوامل الهامة التى تغذى نفسه وتنمى شخصيته – أمكنه أن ينقل هذه الأحاسيس إلى الآخرين ويشعر بالسعادة فى الاختلاط والعطاء ويبعد عنه إحساس الحقد والغيرة . أما الطفل الذى يلاقى الكراهية والعقاب والشدة والعنف ويشعر بالغيرة ممن حوله فى الأسرة ، فإن ذلك ينعكس فى كراهيته للآخرين ، وحقده وغيرته ممن يحيطون به ، مما يؤدى إلى الإحساس باللذة فى تعذيب الآخرين وإيذائهم ومشاكستهم لينتقم لنفسه مما يلاقيه من أسرته من سوء المعاملة . . وهذا ما حدث فى حالة « مها » .

الأخطاء التربوية :

أخطأ والدا مها فى سلوكهما نحوها على الرغم من أعتقادهما بأنهما على حق . وأهم هذه الأخطاء :

١ – اعتقاد الأبوين أن سلوكهما مع مها هو السلوك التربوى الصحيح واستمرارهما فى سوء معاملتها بدنيًا ونفسيًا دون مراعاة ما تعانيه الطفلة من العذاب النفسى ، وظنهما أن ما ترتكبه من أخطاء ما هو إلا نوع من العناد ، فكانا يبالغان فى عقابها .

٢ – استمرار المقارنة بين مها وأختها علانية مع ذكر مواطن الضعف بها ومعايرتها بذلك . أدى إلى زيادة كراهيتها لأختها . وإحساسها بالنقص والفشل ، وعدم قدرتها على النجاح مهما جاهدت مما أدى إلى رسوبها . . فانتابها الإحساس القاتل بالغيرة من أختها والحقد عليها . . حتى إنها كانت فى بعض الأحيان تؤذى أختها انتقاماً من والديها . . وفى نفس الوقت كانت تهمها بالاعتداء عليها فيثار الشغب والمشاكسة اللذان ينتهيان دائماً بعقاب مها بأشد أنواع العقاب .

٣ – عدم فهم مدرسات المدرسة لحاجاتها النفسية ، ومبالغتهن فى عقابها تلبية لرغبة والديها فى هذه الناحية مما أدى إلى كراهيتها للمدرسة والهروب منها فتأخرت دراسيًا فى بعض المواد ، أما المواد الاجتماعية فكانت متفوقة فيها لحسن معاملة مدرستها لها ، وتقديرها لمشاعرها .

٤ – استمرار سوء معاملة الجميع لها فى المنزل والمدرسة أدى فى النهاية إلى زيادة انحراف سلوكها واستمرار الفشل فى الدراسة ، الأمر

الذى دعا إلى طلب المشورة الطبية النفسية للعلاج .

استمر علاج مها بالجلسات النفسية والأدوية المهدئة بالإضافة إلى توجيه الوالدين إلى كيفية معاملة مها فى هذه الظروف ، والاتصال بالمدرسات وتوجيههن إلى تقدير مشاعر الفتاة وتغيير أسلوب المعاملة لإعادة الثقة إلى نفس مها وفى من حولها .

كانت « مها » تنتظم فى حضور الجلسات النفسية ، وكانت تشعر بسعادة كبيرة عند حضورها ، وتقدمت تقدماً ملموساً فى العلاج ، وساعد على ذلك رغبة الوالدين وتعاونهما فى العلاج ومساهمة المدرسة بدورها فى مساعدة « مها » بكل الوسائل المختلفة . شفيت مها مما كانت تعانيه من الاضطراب النفسى وظهر ذلك فى تجاوبها فى دراستها وتحسن سلوكها مع أختها ووالديها ، وزال الشعور بالغيرة والحقد نحو أختها بعد أن حاول الوالدان تصحيح ما ارتكباه من خطأ فى هذه الناحية بتشجيعها وذكر النواحى الطيبة فيها وتنميتها .

مما سبق نرى أن الخطأ الأكبر الذى يرتكبه الوالدان والذى يعتبر من أهم الأخطاء التربوية التى تؤدى إلى انحراف سلوك الأطفال هو مقارنة الأطفال ببعضهم ، ولا سيما حين يكون هناك فرق واضح بين طفلين فى نواحٍ معينة أو كان أحدهما يتمتع بنواح خاصة . فإن هذه المقارنة تخلق الغيرة بين الأطفال . والغيرة شعور مؤلم يجعل صاحبه قلقاً أنانياً لا يستريح لنجاح غيره ، ويميل أحياناً إلى الانزواء والانطواء ، أو إلى الهجوم والتشاجر والإيقاع بغيره ، ويشعر فوق ذلك أنه مظلوم

مضطرب ، وأن الناس يعملون ضده . وهذا يجعله قلقاً كثير الشك فى الناس . ويلاحظ أن الأساس فى الغيرة فى أغلب الأحيان هو القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، وقد تبدو بعض هذه المظاهر عند الطفل بطريقة مقنعة ، فهو يصب غضبه وغيرته أثناء لعبه بعروسة يسميها باسم أخيه أو أخته الصغرى التى تثير غيرته . . وإذا لم يستطع الطفل أن يعبر عن نفسه بهذه التعبيرات فربما اتجه إلى الكذب أو الرغى بدون سبب أو تجاهل الآخرين ، وبخاصة الأفراد الذين يثيرون غيرته أو محاولة لفت الأنظار إليه بالتمارض . .

واجب الآباء لمنع الغيرة ووقاية أبنائهم من الوقوع فى هذا الإحساس :

١ – فى حالة ولادة طفل جديد لا يجوز إهمال الكبير وإعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه . فيجب ألا يعطى المولود إلا بقدر حاجته وهو لا يحتاج إلى الكثير ، والذى يضايق الطفل الأكبر عادة كثرة حمل المولود وكثرة الالتصاق الجسمى الذى يضر المولود أكثر مما يفيده ، وواجب الآباء كذلك تهيئة الطفل إلى حادث الولادة ، وكذلك يجب فطامه وجدانياً وتدريجياً بقدر الإمكان : فلا يحرم حرماناً مفاجئاً من الامتياز الذى كان يتمتع به .

٢ – يجب على الآباء والأمهات أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة ، واعتبار كل طفل شخصية مستقلة لها استعداداتها ومزاياها الخاصة بها ، فإذا نجح طفل فى عمل ما ينبغى أن نشجعه ولا نوازنه بغيره ، وكل طفل مهما فشل له ناحية طيبة يمكن كشفها وإبرازها والاعتزاز بها . وبذلك

يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى إلى الشعور بالذلة والنقص .

٣ – كذلك ينبغى على الآباء والأمهات ألا يبهرهم ما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة فى طاعتهم أو تقليدهم ومسايرة آرائهم والعمل على إرضائهم والإعجاب بهم والتظاهر بالحب لهم ، إلى غير ذلك . . فلا يجوز لهم أن يؤيدوا هذا النوع على حساب الآخر صاحب الرأى الجرىء الحر ، وهذا الموقف من الأبناء كثير الانتشار وهو من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الإخوة وتنشئة بعض الأبناء على النقمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحويل من النقمة على الوالدين وبعض أفراد الأسرة .

٤ – الموازنة بين الطفل ونفسه فى أوقات مختلفة ، فإن تقدم فى وقت ما عما كان عليه فى وقت سابق فهذا كاف لتشجيعه . .

٥ – تنمية الهوايات المختلفة بين الأخوة كالموسيقى والتصوير وجمع الطوابع وغير ذلك ، وبذلك يتفوق كل فى ناحيته ويوازن نفسه بنفسه .

٦ – المساواة فى المعاملة بين الابن والابنة لأن التفرقة فى المعاملة يؤدى إلى شعور الأبناء بالغرور ، ويثير حفيظة البنات وتنمو عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها فى صور أخرى فى مستقبل حياتهن ككراهية الرجال وعدم الثقة بهم ، وغير ذلك من المظاهر .

٧ – عدم إغداق امتيازات كبيرة على الطفل العليل ، فإن هذا يثير الغيرة فى الأخوة الأصحاء ، وتبدو مظاهرها فى تمنى المرض وكراهية الطفل المريض ، أو غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة أو المستترة ،

فبذلك لا يجوز إعطاء الطفل أى اعتبار أكثر من العناية التى يتطلبها المرض .

خلاصة ما تقدم ، ينبغى على الآباء والأمهات مهما كانت الفروق الفردية بين الأخوة لا يجوز استثارة الموازنات المؤدية إلى الغيرة . ولكن هذا لا يمنع بالطبع من إجراء المباريات بين تلاميذ المدارس من آن لآخر ، مما يحفزهم لبذل الجهد ، وخلق الفرص أحياناً بتعويد التلاميذ تقبل الفشل المؤقت بصدر رحب . . أى على الروح الرياضية .

كيف تخلصت هالة من الحلم المتكرر المزعج

حضر إلى عيادتى رجل متوسط العمر ومعه ابنته التى تبدو أنها فى حوالى الخامسة عشرة ، كان واضح الحزن والقلق ، كما كان من الواضح أيضاً أنه ميسور الحال . وبادرنى بالقول :

جئت إليك يا دكتورة لتعالجى ابنتى التى تنتابها نوبات بكاء شديدة وخوف ليس له مبرر ، ولا سيما حين تستيقظ من النوم فى الصباح الباكر ، إذ أنها اعتادت أن ترى أحلاماً مزعجة تسبب لها الصراخ ليلاً . هذه الأعراض بدأت تنعكس على تصرفاتها فى المدرسة ، مما أدى إلى فصلها ، مع أنها كانت قبل ذلك مجتهدة ، جديرة بالثقة ، شديدة الشعور بالمسئولية . . وقد بدأت هذه الأعراض بعد وفاة أمها منذ عدة شهور . . علماً بأن المشرفة الاجتماعية حاولت مرات متعددة أن تساعدها نفسياً ، ولكن عناد هالة وشغبها ازدادا ، حتى إنه لم يعد من الممكن

بقائها مع زميلاتها . وما زالت تعانى من هذه النوبات التى تزعجنا جميعاً . .

ولما دخلت « هالة » إلى مكتبى أخذت تبكى بشدة وتولول من غير أن يكون هناك أى داع لذلك . ثم قالت لى بين زفرات النحيب المتقطع إن الاضطراب بسبب حلم فظيع يراودها باستمرار أثناء نومها .

وبطبيعة الحال سألتها عن مضمون ذلك الحلم . فعرفت أنها ترى أمها التى ماتت منذ فترة وجيزة تظهر فجأة فى أحد أركان حجرة النوم ، ثم تتقدم نحوها ، وتجلس بجانبها على حافة الفراش ، وترفع يدها ببطء كأنها تهم بخنقها . وفى كل مرة كانت تصحو من نومها مذعورة وهى تصرخ صرخات الاستغاثة قبل أن تزهق أنفاسها .

وبدراسة الحالة تبين ما يلى : كانت « هالة » الابنة الأولى لزوجين مثقفين ميسورين لديهما من المال ما يكفى لرغد العيش ، ومن العلم ما يوفر لهما مكانة اجتماعية مرموقة . وكان الأب والأم قد تزوجا عن حب عنيف وتفاهم تام ، ولم يمض العام الأول على زواجهما حتى رزقا بابنتهما « هالة » فأغدقا عليها ما يغدقه الأزواج المتحابون عادة على باكورة أولادهم من الرعاية والعناية . غير أن سعادة الطفلة الصغيرة لم يكتب لها الدوام مع الأسف ، فبعد وقت قصير فوجئت الأم بأنها حامل للمرة الثانية فاضطرت إلى فطامها فجأة وبدون تدرج ، ومنعت عنها ثديها واستبدلت به الزجاجة ثم الكوب . . وعند ولادة الطفل الثانى عكفت الأم على إرضاعه مدة طويلة من الزمن ، وتلاه إخوة آخرون استأثروا باهتمام الأم .

وبحلول الطفل الثانى أخذت أحوال « هالة » تتغير . فلجأت إلى ممارسة عادات لم تكن تعرفها من قبل ، منها مص إصبعها بالليل والنهار ، وكذلك التبول على نفسها ليلاً بعد أن انقطعت تماماً عن ذلك ، ولم يفهم الوالدان سبب هذا التغيير وتصوراه لوناً من التمرد والعصيان ، فلجآ إلى الشدة والزجر ، وكثيراً ما وصل الأمر إلى حد القسوة ، غير أن غضبهما وتأنيبهما ذهبا أدراج الرياح ، وكان الأثر عكسياً إذ ازدادت الطفلة انغماساً فى هذه العادات السيئة مما ضاعف ثورة الوالدين عليها ، نظراً لأنها كانت غاية فى الذكاء سريعة الفهم . متفوقة فى دراستها . . فلا يمكن أن يلتمس لها عذر فى ممارسة العادات السيئة وعصيان توجيهات أهلها .

ومرت الأيام و « هالة » تكبر فتكبر معها متاعبها الدفينة . وشاءت الظروف أن تضيف جديداً إلى أسباب قلقها واضطرابها ، وكان ذلك بسبب الخلاف الحاد الذى دب بين الزوجين المتحابين ، فأطاح بهدوء البيت ، وحرم الأبناء وعلى رأسهم « هالة » من الشعور بالاستقرار والطمأنينة ، وتضاعف شقاء الأم وبكاؤها إلى أن أدى ذلك إلى إصابة الأم بمرض ألزمها الفراش مدة طويلة قبل موتها .

وذكرت « هالة » حادثاً معيناً حدث قبل وفاة أمها مباشرة : فحين كانت أمها فى المرحلة الأخيرة من مرضها ، شجعتها إحدى صديقاتها بأنه لا لوم عليها إذا استولت على بعض ثياب أمها لأنها ستموت قريباً . وبعد موتها لن يكتشف أحد هذه السرقة ويمكنها التصرف فى الثياب وبيعها واقتسام ثمنها . وفى صباح الغد حضرت صديقتها لتأخذ الثياب . .

وكانت لم تزل فى دولاب الأم بحجرة نومها ، ولكن « هالة » كانت مترددة لا تستطيع أن تستقر على رأى فى الموضوع ، وحاولت أن تقاوم إغراء صاحبتها لها بالسرقة ، إلا أن صاحبتها استطاعت أن تقضى على ترددها ، وهونت عليها الأمر . فانقادت « هالة » لإغراء صاحبتها ودخلت حجرة أمها ، وبقيت صاحبتها على باب الحجرة تشجعها وتشد من عزمها بإشارات من رأسها كلما رأتها مترددة . . وكانت الفتاة قد أخذت مفتاح الدولاب معها ولكنها وجدته مفتوحاً . . وعند فتحه أحدث صريراً ، فسقط المفتاح من يدها واستولى عليها ذعر شديد خشية أن تنقلب أمها وهى على فراش الموت فتراها ، وخطفت على عجل ما وقع تحت يدها وأسرعت فألقت بالمسروقات إلى صاحبتها التى انطلقت بالمسروقات بعد أن وعدتها بالحضور فى اليوم التالى ريثما تبيع الثياب . . وفى اليوم التالى كانت الصديقة قد باعت الثياب فعلاً ، وحضرت فى الموعد ، ولكنهما بدلاً من أن تتقاسما الغنيمة قررتا التوجه إلى مدينة الملاهى . . وما تبقى بعد ذلك من النقود أنفقتاه فى أحد محال الحلوى .

ولم تفكر الفتاة فى أمها التى تركتها بمفردها على فراش الموت بل انصرفت انصرافاً تاماً إلى أسباب اللهو مع صاحبتها . . ولما عادت إلى البيت وجدت أمها قد لفظت أنفاسها الأخيرة ، ولم يحزنها موتها ، إلا أنها غضبت لوجود أقاربها فى البيت وانقضاضهم عليها بالملام والتقريع بقسوة . وبدلاً من أن تخجل من نفسها صعرت خدها ورفضت أن تخبرهم أين كانت ، ولم تشعر بأى تأنيب لما أقدمت عليه من السرقة . . ولما اكتشف الأقارب العبث بالدولاب اتهموا أشخاصاً آخرين بالسرقة .

ولم تشعر بوخز ضميرها ، ولم تكترث باتهام الأبرياء .

كانت « هالة » أثناء ذكرها كل هذه الحقائق تبكى بكاء مرًّا ، وصارحتنى بأنها لم تعد تطيق هذه الذكريات المؤلمة ، ولا ذلك الحلم المزعج الذى صار يراودها بصورة متكررة ، وذكرت أنها لم تذكر شيئاً للمشرفة الاجتماعية خشية أن تكف عن حبها بعد ذلك بسبب قسوتها على أمها .

استمرت « هالة » تتردد للعلاج عدة شهور ، أمكننى من خلال الجلسات النفسية أن أساعدها على التخلص من الإحساس بالندم والشعور بالذنب ، مما أدى فى النهاية إلى اختفاء الحلم المزعج المتكرر الذى يراودها بصورة متكررة ؛ وفى نفس الوقت وجهت الوالد إلى الأسس التربوية الصحيحة فى طريقة معاملتها فى المواقف المختلفة مع إغداق الحب والعطف والتشجيع فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتها . ومما ساعد على نجاح العلاج – بالإضافة إلى تعاون الوالد وحرصى على إعطائها بعض الأدوية المهدئة التى يمكن أن تساعدها على التحكم فى انفعالاتها أن استدعيت المشرفة الاجتماعية . . وبعد أن بينت لها الوضع أظهرت استعداداً حسناً للإدراك والعطف ، فكانت تقضى معها كل ليلة – حسب توجيهاتى إليها – فترة طويلة قبل النوم تشجيعاً منها على التحدث عن أمها ، مما جعل خوفها من الحلم المفزع يقل تدريجاً حتى اختفى .

وبذلك أمكن من خلال الجلسات النفسية تخليصها من متاعبها النفسية واستقر سلوكها فى المنزل ، وعاد إليها اتزانها النفسى ، وانتظمت

فى المدرسة ولم يحدث منها أى شغب أو إزعاج بعد ذلك . وعادت إلى سابق عهدها فى المدرسة بالنجاح والتفوق .

الأخطاء التربوية :

تبين من حالة « هالة » أنها فى طفولتها الأولى شعرت بالحرمان من حب الأمومة بعد ولادة الطفل الثانى . . هذا الحب الذى يعتبر الحب الكبير فى حياة كل إنسان ، بل هو الغذاء النفسى الذى يساعد على نموه العاطفى . . ففقدان هذا الحب « لهالة » أصابها باضطراب نفسى شديد ، بصدمة عاطفية شديدة تصورت معها أن أمها تكرهها ، ولا تريد أن ترضعها ، ولصغر سن « هالة » وقصر إدراكها لم تستطع أن تعبر عما فى نفسها أو تفهم معنى لما حدث ، أو تجد مسوغاً له ، فترسبت عقدة الحرمان مبكراً فى قرارة عقلها الباطن ، واختفت بين تلافيفه المتعددة لتزداد حدّة بما حدث بعد ذلك عندما ولد الطفل الثانى ونال من الحب ما حرمت هى منه . وكانت الأعراض التى ظهرت هى التعبير عن الاضطراب النفسى الذى كانت تعانيه نتيجة هذه الأحداث .

وكذلك فإن ارتكاب هالة لسرقة ملابس أمها وهى على فراش الموت ثم توجهها مع صديقتها إلى مدينة الملاهى غير مكترثة بحالة أمها ، هذا التصرف هو التعبير السافر عن الاضطراب النفسى والانتقام من أمها التى أهملتها فى طفولتها . . فالاضطراب النفسى يؤدى إلى الانحراف فى السلوك . . فالطفل حين يتعرض لظروف قاسية فى طفولته المبكرة ينشأ ولديه شىء يظل كامناً فى نفسه . وتقوم الظروف غير المناسبة بإظهاره

على شكل انحراف سلوكى . . فهناك إذن عنصر نفسى فى الطفل لولا وجوده لما كان للبيئة السيئة أى تأثير عليه . وهذا ما سمى بالاستعداد للانحراف ، تساعد على تكوينه الأحداث المتكررة فى الطفولة الأولى ، وهذا ما حدث فى حالة « هالة » . إنها عانت فى طفولتها الحرمان من العطف والحب والحنان وسوء المعاملة ، فكبتت هذا الحرمان بداخلها إلى أن تقابلت مع صديقتها ، فأثارت الانحراف الكامن ، وبدا بصورة سافرة فى نظرتها فى حادث السرقة ثم انحرافها السلوكى فيما بعد بالمدرسة الذى أدى فى النهاية إلى فصلها . وهذا الانحراف فى السلوك يدل على عدم التوافق بين العمليات النفسية من شعورية ولا شعورية ، مما يؤدى فى النهاية إلى التعرض للأحلام المزعجة المتكررة . وهذا ما حدث لهالة .

لذلك كانت مهمتى الأساسية فى علاجها هى إضعاف الميل الكامن نحو الانحراف ، والبحث عن العوامل التى أدت إلى ظهور الانحراف ، سواء فى المدرسة أو المنزل . وليس فقط القضاء على المظاهر السافرة لذلك الانحراف.

التحليل النفسى للحالة :

ارتكب الأهل فى هذه القصة أخطاء غير مقصودة ولكنها دمرت نفسية الطفل الحساسة .

١ – فحرمان الفتاة من الرضاعة فجأة وبدون تدرج أدى إلى إحساسها بفقدان الحب الذى أوصلها إلى الاضطراب النفسى فى السنوات الخمس عشرة من عمرها .

٢ – حين ظهر اضطراب الفتاة النفسى . . مصّ أصابعها والتبول

اللاإرادى لجأ والدها إلى القسوة والزجر والعقاب بدلاً من مضاعفة الحنان واستشارة الإخصائيين .

ولا شك أن الزجر والعقاب والقسوة ضاعفت فى الاضطراب الذى أدى إلى الحرمان العاطفى . الأمر الذى دفعها فى النهاية إلى ارتكاب السرقة كنوع من التعبير عن الانتقام .

٣ – عدم تفهم المدرسة لحالتها وعدم محاولة دراسة الوضع للوصول للدوافع النفسية الكامنة وراء السلوك المنحرف ، بل لجأت المدرسة إلى القسوة وفى النهاية فصلتها .

٤ – سوء معاملة المحيطين بها فى البيت لانحراف سلوكها فى المنزل والمدرسة وعدم تعاونهم معها ومحاولة فهم حاجاتها النفسية فى مرحلة هى فى أشد الحاجة إلى الفهم والحب اللذين حرمت منهما على مدار خمسة عشر عاماً .

٥ – الاضطرابات الأسرية التى كانت تحدث بين حين وآخر قبل وفاة الأم جعل الفتاة تفقد الإحساس بالأمن والطمأنينة والشعور بالانتماء ، مما أدى إلى الاضطراب النفسى والانفعالى اللذين ظهرا فى شكل الانحراف السلوكى .

مما سبق نرى أن الانحراف السلوكى الذى يصيب أطفالنا أو شبابنا يكون له دائماً جذور عميقة فى مراحل الطفولة المختلفة ، يظهر أثرها بصور مختلفة فى مراحل العمر المختلفة . فالاستعداد للانحراف يظل كامناً ولا يظهر إذا كانت البيئة التى يعيش فيها الطفل هانئة متفهمة لحاجاته النفسية فى كل مرحلة . أما إذا كانت البيئة مضطربة مفككة

يسودها سوء المعاملة والأنانية فإن الانحراف الكامن يصبح سافراً وبصورة تؤدى إلى ضرورة الالتجاء إلى المشورة الطبية النفسية والعلاج بصورة عاجلة كى نجنب الطفل أو الشاب النتائج المدمرة لهذا الانحراف .

الحب يضيء لها طريق الحياة

جاءت الأم إلى العيادة ومعها ابنتها « وفاء » البالغة من العمر خمسة عشر عاماً تطلب المساعدة والعلاج لابنتها التى تأتى أعمالاً وسلوكاً غير طبيعيين : فهى اعتادت أن تهرب من المنزل ومن المدرسة ، وتنتابها نوبات صراخ بالليل تقوم على أثرها فى حالة فزع شديد ، يضاف إلى ذلك أنها كانت تتبول لا إرادياً ليلا منذ طفولتها حتى هذه السن .

وبدراسة الحالة تبين ما يلى :

نشأت « وفاء » فى أسرة متوسطة الحال . فهى البنت الثالثة من ثلاث بنات . كانت تعيش مع والدين غير متحابين وغير متفقين ، دائماً فى خلاف وشقاق . إذ أن زواجهما قد تم تحت ظروف لم يتعرف كلاهما على بعض قبل الزواج ، وكانت النتيجة أنهما مختلفان فى النواحى الفكرية والاجتماعية والعاطفية . . إلخ . الحالة المالية للأسرة غير متيسرة . فالوالد موظف بأحد محال القطاع الخاص يتقاضى مرتباً لا يغطى مصاريف الأسرة فيضطر إلى الاستدانة فى معظم الأوقات . فيؤدى ذلك إلى الخلافات المستمرة بين الزوجين .

كان الوالد رجلاً ديكتاتورياً فى منزله قاسياً غير عطوف . الكلمة

كلمته ، والرغبة رغبته . . والويل لمن يناقشه حقه فى فرض إرادته . . لأنه كان يعتقد فى نفسه أنه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم ، كرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل له أن ينزل إلى مدارك الاعتذار عن غلطه أو الرجوع فى رأى أو مجرد حكم أو أمر يصدره . . أمثال هذا الرجل المتعنت فى تقديره لنفسه يمحون شخصية كل من حولهم ، وهو ما حدث بالضبط فى أسرة وفاء ، فأمها كانت امرأة سلبية لا تجرؤ على الوقوف أمام زوجها فى أبسط الأمور . تؤمن به إيماناً راسخاً وتجيب رغباته حرفيًّا ولا تهتز لألوان بطشه بأنيابه وسيطرته التامة على حياتهم كأنهم عرائس خشبية يحرك خيوطها بأصابعه الصلبة . . ومع ذلك ففى بعض الأحيان كانت تنتابها نوبات تحتج فيها على هذه المعاملة التى لا يرتضيها إنسان له شىء من الكرامة . وكانت هذه المناقشات الحادة تحدث أمام الأطفال غير مبالين لما لهذا السلوك من تأثير نفسى سيئ عليهم .

كانت الأم تعتقد دائماً أن وفاء طفلة متهورة غير ناضجة لا يعتمد عليها فى أداء أى عمل حتى بلوغها الخامسة عشرة من عمرها ، وتشكو دائماً من عنادها وإصرارها واندفاعها فى تصرفاتها مما يؤدى إلى فشلها فى كل شىء ، حتى إن الوالد كان يطلق عليها أسماء منفرة « كالملعونة » . ويضربها ضرباً مبرحاً إذا هى أخطأت فى أى شىء ، وفى نفس الوقت يغدق على أختها الثانية المديح لحسن سلوكها ويقارنها دائماً بها . . فتزداد كراهية لنفسها ولوالدها ولأختها . . ويظهر ذلك فى استمرار الانحراف فى سلوكها . .

استمرت حياة « وفاء » فى هذا الجو غير المتفهم لحاجاتها النفسية

بين أب قاس ، غير عطوف انعدم فيه الإحساس بالحنان ، وأم سلبية لا مبالية لا تهتم بها وبحاجاتها ومشاعرها ، وبين إخوة مبتعدين عنها حاقدين عليها . .

وأخيراً أشارت على الأم إحدى صديقاتها بعرضها للفحص الطبي النفسي كي يساعدها على تعديل سلوكها . . وعلاجها من الاضطرابات السلوكية الواضحة . . فاستجابت الأم لهذه المشورة وحضرت إليّ لعلاجها . .

كانت وفاء صغيرة الحجم ، ولكنها جميلة بدرجة تلفت الأنظار ، بيضاء البشرة فاحمة الشعر خضراء العينين ، رقيقة تتكلم بصوت هادئ ليس فيه لفظ خشن أو جرىء أو مبتذل . . كان يبدو عليها القلق وعدم الاستقرار . . كانت « وفاء » أثناء سردها للأحداث والمعاناة التي تلاقيها في المنزل من قسوة وعقاب وضرب وإهانة من كل أفراد الأسرة ، تبدو الدموع في عينيها وتنساب على خدها من شدة تأثرها بما يدور حولها . . كانت تبرر هروبها من المنزل لتتخلص ولو لفترة من العذاب الذي تلاقيه أثناء وجودها به ، إذ كانت تلجأ إلى إحدى صديقاتها لتمكث معها فترة ، ثم تعود إلى منزلها في المساء فتلاقي قسوة الأب وحنقه عليها .

أما في المدرسة فكانت المدرسات يعاملنها بقسوة حسب رغبة الوالد ظنًّا منه أن ذلك يحسن من سلوكها ويجبرها على المواظبة والدراسة . فكانت النتيجة أنها كانت تهرب من المدرسة أيضاً . . وتأخرت في الدراسة .

كان استعداد وفاء للعلاج النفسي كبيرًا جدًّا ولم تتخلف ولو مرة واحدة عن مواعيد الجلسات التي أقررها لها ، وكانت تشعر بسعادة كبيرة عند حضورها بأنها وجدت من يشعر بوجودها ويحميها من البيئة الطاغية

التى تعيش فيها . .

كان يصاحب العلاج النفسى لوفاء توجيه الوالدين إلى الأسلوب الصحيح فى معاملتها . . وأوضحت لهما الأخطاء التربوية التى ارتكباها فى حقها من الناحية النفسية ، ونصحتهما بتغيير معاملتهما وإغداق الحب والعطف عليها اللذين افتقدتهما منذ طفولتها . كان الموقف فيه شىء من الصعوبة لمقاومة الوالد وعدم اقتناعه بتغيير أسلوب معاملته لها الذى كان يؤمن بصلاحيته ، ولكن بمحاولتى إقناعه وبالمناقشة العلمية ، وافق بعد مقاومة شديدة على المحاولة فى سبيل التجربة لاتباع الطريقة المطلوبة منه . .

وحين وجد الوالد أن النتيجة فى التحسن ظهرت بصورة مرضية وسريعة تشجع فى استمراره فى اتباع الأسلوب المتفهم الواعى الذى يمنح الحب والعطف والحنان لوفاء ، والاهتمام بالنواحى النفسية ومراعاتها . .

وبعد فترة قصيرة من العلاج النفسى وبعض الأدوية المهدئة وتوجيه الوالدين ومعرفتهما الأخطاء التربوية التى كانا يرتكبانها دون قصد فى تنشئة وفاء . . تحسنت حالتها وأصبحت فى حالة نفسية هانئة هادئة ، واعتدل سلوكها وزال الانحراف وتوقف الهروب من المنزل والمدرسة وتوقف التبول اللا إرادى وأصبحت من المتفوقات فى الدراسة . .

الأخطاء التربوية :

هناك بعض الأخطاء التربوية ارتكبها الوالدان نحو وفاء دون قصد فى طريقة تنشئتهما لها :

١ ديكتاتورية الأب وقسوته المتعنتة فى معاملة وفاء وعدم محاولة

تفهم حاجاتها النفسية بأفق واسع ، بل اتجاهه إلى أسلوب العنف والسب والضرب مما زاد فى اضطرابها .

٢ – تفضيل الوالد للأخت الثانية واستمرار الموازنة دائماً بينهما أدى إلى كراهية وفاء لأختها الأمر الذى كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى الشجار الحاد بينهما .

٣ – سلبية الأم وعدم منحها الحب والحنان لوفاء ، وانحيازها للأخت الثانية فى معظم الأحيان زاد من توتر نفسية وفاء وكراهيتها للجميع حتى نفسها . . وأصبحت تشعر بعدم الانتماء إلى الأسرة مما دعاها إلى الهروب من المنزل ، وتفضيلها البقاء عند صديقتها وقتاً طويلاً .

٤ – سوء تصرف الوالد بتحريضه لمدرسات المدرسة لضربها وعقابها بشدة مما أدى فى النهاية إلى هروبها من المدرسة .

٥ - يضاف إلى ما سبق الخلافات الأسرية الشديدة التى كانت تنبع من ديكتاتورية الوالد ولعدم وجود التفاهم بين الزوجين لاختلافهما فى المفاهيم . مما سبق نرى أن وفاء فقدت الحب والحنان والعطف ، وحرمت من الدفء الأسرى والإحساس بالانتماء ، فانحرف سلوكها وساء تكيفها ، مع بيئتها – المنزل والمدرسة – وأصبحت فى حالة نفسية مضطربة ، كان ذلك التأثير يظهر فى سلوكها غير الواعى . .

فعلى الآباء والأمهات ألا يحرموا أطفالهم من حبهم . . فالحب هو الغذاء النفسى للطفل الذى تنمو وتتضح عليه شخصيته . . فالحب الواعى المستنير يقتضينا أن نبدأ أولاً بإحاطة الطفل بجو من الدفء ، دفء شعورنا وحناننا وإقبالنا ، وبإعطائه من أنفسنا بسخاء ، فإن ذلك خليق

بأن يملأه ثقة واطمئناناً إلينا ، وبالتالى ثقة بنفسه واطمئناناً إلى العالم حوله ، وهو فى أشد الحاجة إلى هذه الثقة لكى يخطو الخطوة التالية فى مسيرته نحو النضج . .

فإذا شئنا أن ينشأ أبناؤنا على الثقة والاطمئنان وأن يتجهوا إلى العمل البناء فى تعاون وإيثار وأن يجدوا السعادة فى البذل والعطاء ، فلنعطهم الحب أولاً ، لنعطهم الحب الواعى المستنير اليوم إذا شئنا لهم أن يعطوه لنا بدورهم فى غد . . نعطيهم الحب ، فإن فاقد الشىء لا يعطيه . . ليكن حبنا لهم حب الإيثار لا الأثرة – ، حب العطاء لا الأخذ ، حب التضحية والبذل ، الحب الذى ننسى أنفسنا فيه دائماً ، ونذكرهم فيه أبداً ، حتى نمهد لهم السبيل ليكونوا الأفراد الذين نعتز بهم ويفخر الوطن بأعمالهم .